الإمام الحسن عليه السلام

قُدوةٌ وأُسوةٌ

سِلسلة النّبيّ وَأهْل بَيْتِه قُدوة وأسوة - ٤

الإمام الحسن عليه السلام

قُدوةٌ وأُسوةٌ

سماحة المرجع الدّيني آية الله العُظمى الحاج

السّيّد مُحمّد تقي المُدرّسيّ

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** الإمام الحسن عليه السلام قدوة وأسوة.
* **المؤلف:** المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* **الطبعة:** الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
* **الناشر:** مركز العصر للثقافة والنشر، لبنان، بيروت. (alasrr@gmail.com).
دار كميل للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طريق المطار،
ص.ب: ٧٩٥٧/ ١١ (dar_komail@yahoo.com).

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ٦

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ٧ ﴾

الفصل الأول

الأَصْلُ الكَرِيمُ

ولادته ونشأته

النبي في رحلة:

في ليلة النصف من رمضان، كان بيت الرسالة يستقبل وليده الحبيب، وقد كان ينتظره طويلاً.. واستقبله كما تستقبل الزهرة النضرة قطرة شفافة من الندى بعد العطش الطويل.

والوليد يتشابه كثيراً وجدَّه الرسول العظيم، ولكنّ جدَّه لم يكن شَاهَدَ ميلاده حتى تُحمل إليه البشرى؛ فقد كان في رحلة سوف يرجع منها قريباً.

وكان أفراد الأسرة ينتظرون باشتياق، ولم يُتحفوا الوليد بسنن الولادة، حتى إذا جاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أسرع إلى بيت فاطمة عليها السلام على عادته في كل مرة عندما كان يدخل المدينة بعد رحلة. وعندما أتاه نبأ الوليد غَمَره البُشْر، ثم استدعاه، حتى إذا تناوله أخذ يشمّه ويقبّله ويؤذِّن له ويُقيم، ويأمر بخرقة بيضاء يلفُّ بها الوليد، بعدما ينهى عن الثوب الأصفر.

ثم ينتظر السماء هل فيها للوليد شيء جديد، فينزل الوحي، يقول: إن اسم ابن هارون -خليفة موسى عليه السلام- كان شُبَّراً، وعلي منك بمنزلة هارون من موسى، فسمِّه حَسَناً، ذلك أن شُبَّراً يرادف الحسن في العربية.

وسار في المدينة اسم الحسن، كما يسير عبق الورد. وجاء المبشرون يزفون أحر آيات التهاني إلى النبي ﷺ، ذلك أن الحسن عليه السلام كان الولد البكر لبيت الرسالة، يتعلق به أمل الرسول وأصحابه الكرام. فهو مجدد أمر النبي الذي سوف يكون القدوة والأسوة للصالحين من المسلمين، إنه امتداد رسالة النبي من بعده. وفي الغد يأمر الرسول ﷺ بكبش، يُعَقُّ عنه، فلما أتوا به جاء بنفسه ليقرأ الدعاء بالمناسبة فيقول: «**بِسْمِ اللهِ عَقِيقَةٌ عَنِ الحَسَنِ، وقال: اللَّهُمَّ عَظْمُهَا بِعَظْمِهِ، وَلَحْمُهَا بِلَحْمِهِ، وَدَمُهَا بِدَمِهِ، وَشَعْرُهَا بِشَعْرِهِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا وِقَاءً لِمُحَمَّدٍ وَآلِه**»(١).

ثم يأمر بأن يُوزَّع اللحم على الفقراء والمساكين، لتكون سنّة جارية من بعده، تَذبح كلّ أسرة ثريَّة كبشاً بكل مناسبة متاحة، لتكون الثروة موزعة بين الناس، لا دُوْلَة بين الأغنياء منهم.

ثم يأخذه الرسول ذات يوم وقد حضرت عنده لبابة -أم الفضل- زوجة العباس بن عبد المطلب عمِّ النبيِّ ﷺ فيقول لها: **رَأَيتِ رُؤْيَا، فِيْ أَمْرِيْ؟**

فتقول: نعم يا رسول الله.

فيقول ﷺ: **قُصِّيْهَا**.

فتقول: رأيتُ كأنَّ قطعةً من جسمك وقعت في حضني.

فناولها الرسول ﷺ الرضيع الكريم، وهو يبتسم ويقول: **نَعَمْ، هَذَا تَأْوِيْلُ رُؤْيَاكِ. إِنَّه بِضْعَةٌ مِنِّيْ**(٢).

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٥٦.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٤٢.

وهكذا أصبحت أم الفضل مرضعة الحسن عليه السلام.

... ويشب الوليد في كنف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وتحت ظلال الـوصي عليه السلام، وفي رعايـة الزهراء عليها السلام، ليأخذ من نبع الرسـالة كلّ معانيها، ومن ظلال الولاية كلّ قِيَمِها ومن رعاية العصمة كلّ فضائلها ومكارمها. ولايزال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والوصي والزهراء عليهما السلام يُوْلُونه العناية البالغة التي تُنمّي مؤهلاته.

الوراثة:

وليس هناك من شـك في أن للوراثة أثرها الكبير في صياغة الفرد صياغة مكيّفة بالبيئة التي انبعث منها وخُلق فيها. وبيتُ أبناء أبي طالب، كان خير البيوت لإنشاء الإنسان الكامل، فكيف وقد وُلد الحسن عليه السلام مـن عبد المطلب مرتـين، مرة من علي بن أبي طالـب وأخرى من فاطمة بنـت محمد بـن عبد الله بن عبـد المطلب؟!. كما كان عـلي عليه السلام مولوداً من هاشـم مرتـين. ولا نريد أن نـشرح مآثر بيت هاشـم، وبالخصوص أسرة عبـد المطلب فيهم، فإنها ملأت السـهل والجبل، بل أقول: ناهيك عـن بيت بزغ منه الرسـول الأكرم، محمـد صلى الله عليه وآله وسلم، والوصي العظيم علي عليه السلام، وحسب علمِ حساب الوراثة أن التأثير قد يكون من جهة الأب فيسـتصحب كلّ سـماته وصفاته. وقد يكون من جانب الأم، وقد تحقق في الحسن عليه السلام هذا الأخير. فقد برزت فيه سمات أمه الطاهرة لتعكس صفـات والدهـا العظيم محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكان أشـبه ما يكون بالنبي منه بالإمام، وطالما كان يطلق النبي قوله الكريم: «**الحَسَنُ مِنِّيْ وَالحُسَيْنُ مِنْ عَلِيٍّ**»[1].

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٣، ص٢٥٨.

وقد نجد تفسيراً لهذه الكلمة في الأحداث التي جرت بعد الرسول ﷺ وطبيعة الظروف التي قضت عند الحسن عليه السلام أن يتخذ منهج الرسول أُسوةً له دقيقة التطبيق شاملة التوفيق، فيُعطي الناس من عفوه وصفحه، ويُعطي أعداءه من صُلحه ورِفقه، مثلما كان يعطي الرسول تماماً. كما اقتضت عند الحسين عليه السلام أن يبالغ في شدّته في الدِّين، وغيرته عليه، ويبدي من منعته ورفعته في أموره، ما جعل تشابهاً كبيراً بينه وبين عهد علي عليه السلام مع المشركين والكافرين والضالين.

التربية:

ولقد أولاه النبيُّ والوصيُّ والزهراءُ عليهم السلام من التربية الإسلامية الصالحة ما أهَّله للقيادة الكبرى. فإن بيت الرسالة كان يربي الحسن وهو يعلم ما سوف يكون له من المنزلة في المجتمع الإسلامي، كما يوضِّح للمؤمنين منزلته وكرامته.

فكان النبيُّ ﷺ يرفعه على صدره، ثم يقيمه لكي يكون منتصباً ويأخذ بيديه يجره إلى طرف وجهه الكريم جرًّا خفيفاً وهو ينشد قائلاً: «**حزقَّةُ حزقَّة**[1] **تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّة**».

ويلاطفه ويداعبه، ثم يروح يدعو: «**اللَّهُمَّ إِنِّيْ أُحِبُّهُ فَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**»[2]. ويقصد أن يسمع الناس من أتباعه لكي تمضي سيرتُه فيه أسوة للمؤمنين، بكرامة الحسن عليه السلام واحترامه.

ومرة يصلي النبي بالمسلمين في المسجد، فيسجد ويسجدون، يرددون في خضوع: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ» مرة بعد مرة، ثم

(١) الحزقة: القصير الذي يقارب الخطو.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨٦.

ينتظرون الرسول أن يرفع رأسه ولكن النبيَّ يطيل سجوده، وهم يتعجبون: ماذا حدث؟. ولولا أنهم يسمعون صوت النبي لا يزال يَبعث الهيبة والضراعة في المسجد لظنوا شيئاً.

ولا يزالون كذلك حتى يرفع النبي رأسه، وتتم الصلاة، وهم في أحر الشوق إلى معرفة سبب إبطائه في السجود فيقول لهم: جاء الحسن فركب عنقي، فأشفقت عليه من أن أُنزله قسراً، فصبرت حتى نزل اختياراً.

وحيناً: يصعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنبر ويعظ الناس ويرشدهم، فيأتي الحسنان من جانب المسجد فيتعثَّران بثَوْبَيهما فإذا به يهبط من المنبر مسرعاً إليهما حتى يأخذهما إلى المنبر، يجعل أحدهما على وركه اليمنى، والآخر على اليسرى، ويستمر قائلاً: «صَدَقَ اللهُ، ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]، **فَنَظَرْتُ إِلَىٰ هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»[2].

وكان يصطحبهما في بعض أسفاره القريبة، ويُردفهما على بغلته من قُدَّامه ومن خَلْفه لئلا يشتاق إليهما فلا يجدهما، أو لئلا يشتاقا إليه فلا يجدانه. وكان يشيد بذكرهما في كلّ مناسبة، ويظهر كرامتهما إعلاناً أو تنويهاً. فقد أخذهما معه يوم المباهلة وأخذ أباهما وأمهما فظهر من ساطع برهانهم جميعاً ما أذهل الأساقفة.

ودخل رسول الله دار فاطمة عليها السلام، وسلَّم ثلاثاً على عادته في كلّ دار، فلم يُجبه أحد. فانصرف إلى فناء، فقعد في جماعة من أصحابه ثم جاء الحسن ووثب في حبوة جدّه فالتزمه جدّه، ثم قبَّله في فيه ثم راح

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠٠.

يقول: «الحَسَنُ مِنِّيْ وَالحُسَيْنُ مِنْ عَلِيٍّ».

وكثيراً ما كان الناس يتعجبون من صنع الرسول هذا، كيف يعلنها لابْنَيهِ إعلاناً، فذات مرة شاهده أحد أصحابه وهو يُقَبِّلُ الحسن ويشمه فقال -وقد كره هذا العمل-: إِنَّ لِي عَشَرَةً مَا قَبَّلْتُ وَاحِداً مِنْهُمْ قَطُّ، فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَم». وَفِي رِوَايَةِ حَفْصٍ الْفَرَّاء قال: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى الْتُمِعَ لَوْنُهُ وَقَالَ لِلرَّجُلِ: إِنْ كَانَ اللهُ قَدْ نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ فَمَا أَصْنَعُ بِكَ؟»[1].

ثم لما رأى مناسبة سانحة أردف قائلاً: «الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ ابْنَايَ، مَنْ أَحَبَّهُمَا أَحَبَّنِيْ، وَمَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَحَبَّه اللهُ أَدْخَلَهُ الجَنَةَ. وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا أَبْغَضَنِيْ، وَمَنْ أَبْغَضَنِيْ أَبْغَضَهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُ اللهُ أَدْخَلَهُ النَّارَ عَلَى وَجْهِهِ»[2].

ثم أخذهما هذا عن اليمين وذاك عن الشمال، مبالغة في الحب.

ولطالما كان يسمع الصحابة قولته الكريمة: «هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا»[3].

أو كلمته العظيمة يقولها وهو يشير إلى الحسن عليه السلام: «وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّه»[4].

ويرى أبو هريرة الإمام الحسن عليه السلام بعد وفاة جده الرسول فيقول له: «أَرِنِي أُقَبِّلْ مِنْكَ حَيْثُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يُقَبِّلُ»، ثمّ قبّل سرّته. ومن ذلك يظهر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلن ذلك إعلاناً،

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨٢ - ٢٨٣.
(٢) أعلام الورى، الطبرسي، ص٢٢١.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨٠.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٦٦.

حتى يراه الناس جميعاً.

وقد بالغ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم في مدح الحسنين، حتى لكان يُظن أنهما أفضل من والدهما علي عليه السلام، مما حدا به إلى أن يستدرك ذلك عن لسان جبرئيل عليه السلام فيقول: «**هُمَا فَاضِلَانِ فِي الدُّنْيَا فَاضِلَانِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَبُوهُمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا**»(١).

وطالما كان يرفعهما على كتفيه -يذرع معهما طرقات المدينة- والناس يشهدون، وقد يقول لهما:

«**نِعْمَ الجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الحَمْلَانِ أَنْتُمَا**»(٢).

وطالما كان ينادي الناس فيقول:

«**وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّة**»(٣).

أو:

«**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا**»(٤).

أو:

«**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا**»(٥).

ولقد قال -مرة-: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ زُيِّنَ عَرْشُ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِكُلِّ زِينَةٍ، ثُمَّ يُؤْتَى بِمِنْبَرَيْنِ مِنْ نُورٍ طُولُهُمَا مِائَةُ مِيلٍ فَيُوضَعُ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ عليهما السلام**

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠١.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٠٢.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨١.
(٥) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٩١.

فَيَقُومُ الحَسَـنُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَالحُسَيْنُ عَلَى الْآخَرِ يُزَيِّنُ الرَّبُّ تبارَكَ وَتَعَالَى بِهِمَا عَرْشَهُ كَمَا يُزَيِّنُ المَرْأَةَ قُرْطَاهَا»(١).

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله: «**الْوَلَدُ رَيْحَانَةٌ، وَإِنَّ رَيْحَانَتَيَّ الحَسَنُ وَالحُسَيْن**»(٢).

وعن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَحَبَّ الحَسَـنَ وَالحُسَيْنَ فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي**»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّة**»(٤).

وروى عمـران بن حصين عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قـال له: «**يَا عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ! إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَوْقِعاً مِنَ الْقَلْبِ، وَمَا وَقَعَ مَوْقِعَ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ مِنْ قَلْبِي شَيْءٌ قَطُّ..**

فَقُلْتُ: كُلُّ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ!

قَالَ: يَا عِمْرَانُ! وَمَا خَفِيَ عَلَيْكَ أَكْثَرُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِحُبِّهِمَا»(٥).

وروى أبـو ذر الغفـاري قَـالَ رَأَيْـتُ رَسُـولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم **يُقَبِّلُ** الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ وَهُوَ يَقُولُ: «**مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَذُرِّيَّتَهُمَا مُخْلِصاً لَمْ تَلْفَحِ النَّـارُ وَجْهَهُ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ بِعَدَدِ رَمْلِ عَالِجٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَنْباً يُخْرِجُهُ مِنَ الإِيمَانِ**»(٦).

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٦٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٦٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٦٤
(٤) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٦٥.
(٥) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٦٩.
(٦) بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٢٧٠.

وروى سلمان فقال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام: «**اللّٰهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ أَحَبَّهُمَا..**».

وقال: «**مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ أَحْبَبْتُهُ، وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ. وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا أَبْغَضْتُهُ، وَمَنْ أَبْغَضْتُهُ أَبْغَضَهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُ اللهُ أَدْخَلَهُ النَّار**»(1).

وما إلى ذلك من أقوال مضيئة نعلم -علم اليقين- أنها لم تكن صادرة عن نفسه، بل عن الوحي الذي لم يكن ينطق إلَّا به.

ولازالت عناية الرسول تشمل الوليد حتى شبّ، وقد أخذ من منبع الخير ومآثره، فكان أهلاً لقيادة المسلمين. وهكذا رآه الرسول ومن قبله إله الرسول، إذ أوحى إليه أن يستخلف عليًّا، ثم حسناً وحسيناً، فطفق يأمر الناس بمودَّتهم واتِّباعهم واتخاذ سبيلهم. ولئن شككنا في شيء فلن نشك في أن من ربَّاه الرسول، كان أولى الناس بخلافته.

بعد فقد الرسول:

وكان للحسن عليه السلام من العمر زهاء ثمانية أعوام حينما لحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى (في السنة الحادية عشرة من الهجرة) فأثَّر في قلبه ألم الفاجعة، وأضرم فيه نيران الكآبة والحزن.

ولانصراف دفة الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام، الذي كان له الحق الشرعي فيها، أحسّ الحسن عليه السلام بمزيد من الحزن والغيظ، لا لأن والده حُرم حقًّا هو له، أو منصباً هو أهله، أو زُوي عنه من الدنيا ما كان لهم.. كلا، لأنّه كان يرى أن انحراف المسلمين عن الجادة، يعني

(1) بحار الأنوار، ج43، ص 275.

انحدارهم إلى هوة الضلال بعد انتشالهم عنها، ورجوعهم إلى مفاسد الجاهلية، بعد تخلّصهم منها، لذلك حزن واشتد حزنه.

وذات يوم دخل المسجد فرأى الخليفة الأول يخطب في الناس على منبر جده، بل أبيه، فثارت في فؤاده لوعة وكآبة، فانقلبت إلى غيظ وسخط، فاخترق الجميع حتى بلغ المنبر قائلاً: **انْزِلْ، انْزِلْ عَنْ مِنْبَرِ أَبِيْ**..

فسكت الخليفة الأول وكرَّر الحسن عليه السلام يقول -وقد تقدم إلى المنبر شيئاً-: **انْزِلْ، إِيَّاكَ أَعْنِيْ**. فقام صحابي، وضمّ الحسن عليه السلام إلى نفسه يُسكت عنه الروع، وساد الصمت حيناً، ثم اخترقه الخليفة الأول وهو يقول: صدقتَ فمنبر أبيك، ولم يزد شيئاً. ولكنه عاتب عليًّا عليه السلام بعد ذلك وقد ظن أنه أثار الحسن عليه، بيد أن الإمام عليه السلام حلف له أنه لم يفعل.

ونلتقي بالحسن عليه السلام بعد هذا الحادث بثلاث وعشرين سنة حينما اندلعت الثورة الجامحة من المسلمين تطالب الخليفة الثالث بخلع نفسه من الخلافة، والثورة كانت تضطرم شيئاً فشيئاً، وينضم إليها المسلمون أفواجاً وأفواجاً، وقد اشتد بهم الحنق على سياسة الخليفة وسلوك تابعيه، وكانت الثورة تنقاد بأمر العظماء من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وزعماء المسلمين، أمثال عمار بن ياسر، ومالك بن الحارث (الأشتر)، ومحمد بن أبي بكر، غير أنه انضوى تحت ألويتهم عدة غير قليلة من سواد الشعب من العراق، ومصر وطائفة من الأعراب، ولم يكن هؤلاء -طبعاً- ذوي سداد في الرأي، وحنكة في التجربة بل أُولي نخوة ومصالح. واشتد أمر الثورة، حتى حاصروا دار عثمان يطالبونه: إما أن يخلع نفسه وإما أن يُلبِّي دعوتهم. وأبى عثمان إلَّا الاعتماد على جيش معاوية، الذي استنجده، وذلك الجيش كان قد أمره معاوية

بالوقوف خارج المدينة حتى يأذن له بدخولها.

وذات يوم أراد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يُخبر عثمان بعزمه على الدفاع عنه، والمشورة له والنصح للعالم الإسلامي، إن أراد ذلك، ولكن من يبلّغ هذه الرسالة إلى عثمان، وحول بيته عشرات الألوف يهزون الرماح ويسلّون السيوف. فقام الحسن عليه السلام قائلاً: أنا لذلك. ثم أخذ يخترق الجميع في عزيمة الشجاع العظيم، حتى أتى دار عثمان، فدخلها بكلّ طمأنينة وبلّغ رسالة والده، وجلس ينصحه ويشير عليه بالخير غير مبالٍ بما يثيره الثوار خارج البيت من صلصلة سيوف، ودمدمة سروج، ودغدغة رماح. فإنهم كانوا في حالة صَرَع، لا يُؤْمَن أن يخترقوا الدار، فيقتلوا من فيها، وفيها الحسن. غير أنه جلس رابط الجأش ثابت العزيمة، شجاع الفؤاد، لأنه علم أنه إن أُصيب بشيء ففي سبيل النصح في سبيل الله ودفع غائلة الفتنة عن المسلمين.

وهكذا جلس حتى أتمّ واجبه وبلّغ رسالته، ورجع يخترق جموع الثوار مرة أخرى.

وحيناً آخر نجد الإمام الحسن عليه السلام، وقد قُتِلَ عثمان وازدحمت الحوادث من بعده، يرى: من هنا معاوية يدعو إلى نفسه، ومن هنا الناكثون يحشدون الجيوش تحت قميص عثمان، وقد أُخرجت زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الموكب لتنتقم.

والإمام الحسن عليه السلام كان يومئذ فتىً له كلّ مؤهلات القيادة والوصاية، وقد كان له الحظ الأوفر بعد أبيه في تسيير القضايا وتدبير الأمور، والعالم الإسلامي آنذاك أحوج ما يكون إلى تدبيره وسياسته، لأن خطأة واحدة كانت كفيلة بإبادتها رأساً. والإمام أمير المؤمنين كان يتردد بين أمرين ما أصعب الاختيار بينهما. وهما أن يقعد ويتقاعس

عن الحرب وقد أرادها له خصومه ليستولي على الأمور أولو المطامع والشهوات، أو أن يحارب -وقد فعل- وفي الحرب مذبحة المسلمين.

ولا يهمنا من ذلك إلَّا أن الإمام الحسن عليه السلام عاش تجارب والده التي كانت تجاربه بنفسه. حيث إن والده العظيم كان يشاطره أمور الخلافة كلها لسببين:

أولاً: لِمَا كان فيه من الكفاءة والمقدرة.

ثانياً: لكي يهدي الناس إلى الإمام من بعده، وليروا في نجله العظيم القائدَ المحنَّكَ الحازمَ، والحاكمَ العادل الرؤوف. ففي اليوم الذي بُويع والده بالخلافة كان عليه أن يرقى المنبر على عادة الخلفاء من قبله ليُبين سياسته، لكي يكون الناس على خبرة وعلم. هكذا روت الأحاديث أنه عليه السلام استدعى الحسن عليه السلام ليصعد المنبر لئلا تقول قريش من بعده إنه لا يُحسن شيئاً، «هكذا» كما صرح بذلك أمير المؤمنين ذاته. فصعد المنبر، ووعظ الناس وأبلغ، ثم راح الإمام يردد فضائل السبطين على الملأ العام.

وظلّ الحسن عليه السلام الساعد المتين لوالده العظيم، في تلك الفتنة الكبرى، التي رافقت خلافة علي عليه السلام. نعم! ففي فتنة البصرة بعث الإمام نجله على رأس وفد فيه عبد الله بن العباس، وعمار بن ياسر وقيس بن سعد، يستنفر أهل الكوفة لحرب الغدرة من أصحاب الجمل، وقد حمل معه كتاباً عن أمير المؤمنين فيه عرض خاطف عن قصة مقتل عثمان، وبيان الحقيقة في ذلك، فجاء الإمام، يريد استنهاض الناس الذين كانت، ولازالت، ولاتها تُثبطهم عن الخروج مع الإمام فعاتب أولاً أبا موسى الأشعري المراوغ، على تثبيطه الناس، وكان يومئذٍ والياً على الكوفة، ثم تلا عليهم الكتاب بنصه:

«أَمَّـا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مَخْرَجِـي هَذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّـا مَظْلُوماً وَإِمَّا بَاغِيـاً وَإِمَّـا مَبْغِيًّا عَلَيَّ، فَأَنْشُـدُ اللهَ رَجُلاً بَلَغَهُ كِتَابِي هَـذَا إِلَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مَظْلُوماً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ ظَالِماً اسْتَعْتَبَنِي»[1].

ثم أخذ يحثهم على الجهاد وهو يقول على ما في بعض الروايات:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّا جِئْنَاكُمْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَإِلَى أَفْقَـهِ مَـنْ تَفَقَّـهَ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ، وَأَعْـدَلِ مَـنْ تُعَدِّلُـونَ، وَأَفْضَلِ مَنْ تُفَضِّلُونَ، وَأَوْفَى مَنْ تُبَايِعُونَ، مَنْ لَمْ يُعْيِهِ الْقُرْآنُ وَلَمْ تُجَهِّلْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ تَقْعُدْ بِهِ السَّابِقَةُ، إِلَى مَنْ قَرَّبَهُ اللهُ إِلَى رَسُولِهِ قَرَابَتَيْنِ: قَرَابَةَ الدِّينِ وَقَرَابَةَ الرَّحِمِ، إِلَى مَـنْ سَـبَقَ النَّـاسَ إِلَى كُلِّ مَأْثُرَةٍ، إِلَى مَـنْ كَفَى اللهُ بِهِ رَسُـولَهُ وَالنَّاسُ مُتَخَاذِلُونَ فَقَرُبَ مِنْهُ وَهُمْ مُتَبَاعِدُونَ، وَصَلَّى مَعَهُ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَقَاتَلَ مَعَهُ وَهُمْ مُنْهَزِمُونَ، وَبَارَزَ مَعَهُ وَهُمْ مُجْمِحُونَ [مُحْجِمُونَ]، وَصَدَّقَهُ وَهُمْ مُكَذِّبُونَ، إِلَى مَنْ لَمْ تُرَدَّ لَهُ رَايَةٌ [رِوَايَةٌ]، وَلَا تُكَافِئُ لَهُ سَابِقَةٌ.

وَهُـوَ يَسْـأَلُكُمُ النَّـصْرَ، وَيَدْعُوكُـمْ إِلَى الْحَقِّ، وَيَسْـأَلُكُمْ بِالْمَسِـيرِ إِلَيْـهِ لِتُوَازِرُوهُ وَتَنْـصُرُوهُ عَلَى قَوْمٍ نَكَثُوا بَيْعَتَهُ، وَقَتَلُـوا أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ أَصْحَابِـهِ، وَمَثَّلُـوا بِعُمَّالِـهِ، وَانْتَهَبُـوا بَيْتَ مَالِهِ، فَاشْـخَصُوا إِلَيْـهِ رَحِمَكُمُ اللهُ؛ فَمُـرُوا بِالْمَعْـرُوفِ وَانْهَـوْا عَـنِ الْمُنْكَرِ وَاحْـضُرُوا بِمَا يَحْضُرُ بِهِ [من] الصَّالِحُون..»[2].

هكـذا أتـم المقطوعـة الأولى من خطبتـه.. فبيَّن لهم أولاً دسـتور صاحـب الدولـة، بنـص الكتـاب الذي أرسـله الخليفـة، ثـم راح يُبيِّن شـخصية الداعي لهـم حتى يأتمنوه عـلى دينهم ودنياهم. ثـم أخذ ببيان جانـب الفتنة ليبعث فيهم الروح الإنسـانية التـي تحثهم على الدفاع عن

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٤، ص١٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٣٢، ص ٨٦.

المقدَّسات، وأخيراً تكلم معهم عن الناحية الدينية، فأبلغ بذلك كمال مراده.

ثم أَتبع هذه الخطبة، بأخرى، ألهب فيها حماساً، ودعا إلى الجهاد، ولازال بهم حتى احتشد منهم جمع كثير، وكان هناك تدابير أخرى تتبع هذه الخطب، وتنفذها.

وسار الجيش إلى البصرة، والتقى الفريقان والتحم الجيشان، ورأى الإمام: أن الراية المعادية هي المركز الذي يجب أن يقصد، فإن وقعت فالعدو منهزم، وإن بقيت فإن في ذلك مقتلاً كبيراً من الفريقين ولا يريد ذلك الإمام عليه السلام.

فتوجه إلى محمد بن الحنفية -نجله الشجاع الصنديد الذي كان مضرب المثل في الناس بالقوة والشجاعة- يأمره بالإقدام، ومحاولة اسقاط العلم، وقد كانت تلك المحاولة صعبة جدًّا، حيث إن الجيوش كانت تعتبر العلم كلّ شيء في نصرها أو هزيمتها، فكانت تدافع عنه بما أوتيت من قوة وبأس.

فأقدم محمد في عزيمة ثابتة، بيد أنه لم يَخْطُ خُطوات حتى عرف الخصم مناوئه، فجعل الجيش كله يُمطر عليه السهام، فإذا به يجد نفسه تحت وابل من النبال، فرجع إلى مركز القيادة عند أمير المؤمنين. فزجره الإمام فأجاب: إنه إنما صبر حتى يخف النبل وثم يتابع زحفه. وهنا يكتب بعض الرواة: أن الإمام عزم على إنجاز المهمة بنفسه، بيد أن الإمام الحسن قام يكفيه ذلك، فقال له والده، بعد ترددٍ ربما كان ناشئاً عن محافظته الكبيرة على حياة السبطين؛ لأنه كان ينحدر منهما نسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا استشهد فمن الذي يحفظ نسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟. ومن الذي يكون امتداداً له؟

قال له بعد أن تردد بعض الوقت: **سِرْ عَلَى اسْمِ اللهِ**.

واقتحم الإمام خضم الجيش، فتقاطرت عليه النبال، وعلي عليه السلام ينظر إليه عن كثب، ومحمد على جنبه يرقُّ، ولم يزل الحسن عليه السلام يغيب في لجج الرجال ويطفو عليها حيناً آخر، حتى بلغ مركز الراية فأسقطها، وهزم الجيش وتَمَّ النصر على يده عليه السلام.

.. ولو ظللنا نتابع الأحداث التي جرت على خلافة أمير المؤمنين، نتحسس عن شخصية الإمام الحسن عليه السلام، لطال ذلك بنا كثيراً، لأنها كانت الشخصية الثانية في تلك الأحداث الرهيبة، ولها من اللمعان والوضاءة ما يبهر الأبصار ويُدهش العقول.

الفصل الثّاني

عَهدُ إمَامَتِهِ

وتمت المؤامرة الكائدة باغتيال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين هجرية، والعالم الإسلامي يومئذٍ في أشد ما يكون من الاضطراب والتوتر.

فها هنا الخوارج ظلّت بقايا منهم هنا وهناك يدعون الناس إلى حكم الله الذي لا يتعلق بأي من القيادتين الشامية والكوفية -في زعمهم- بل يعيش بغير قيادة!! وانضوى تحت لوائهم الكثيرون من القشريين والمفسدين، ممن لم يكن يعجبه الحقّ المتمثل في معسكر الإمام علي ولا نوع الباطل في معسكر الشام. وكان هؤلاء يستسهلون في سبيل إبادة الحكم، كلّ صعب، ويبرّرون كلّ فساد.

وهناك في الشام، يحشر معاوية جيشه لتجريد حملة عسكرية أخرى على الكوفة يكون فيها الفصل، ويكتب إلى عماله يقول ما هذا نصه بالحرف:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان، ومَن قِبَلَه من المسلمين، سلام عليكم.. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو. أما بعد فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم فترك أصحابه محرَّفين مختلفين، وقد جاءنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأَقْبِلُوا إليَّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم، وحشد عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلّ الله

أهل البغي والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1][2].

أما الخوارج فإنهم وإن كانوا سوف يؤيدونه ضد معاوية، إلَّا أنهم سوف لايزيدونه غير تخسير، لأنهم لايعتقدون به كما أنهم لا يعتقدون بمعاوية سواءً بسواء.

ولنلقِ نظرةً إلى بيت الإمام علي عليه السلام، لنرَ كيف يخبت فيه نور الإمام وسناؤه، ليُدفن مع جثمانه الطاهر في ظهر الغريّ في خفاء، وعلى أشد الحذر من الخوارج أن يعرفوا مرقده، فيفكروا في الانتقام لصاحبهم (ابن ملجم) الذي أُحرق جثمانه، ولخوفهم ومن غيرهم كجواسيس بني أمية الذين لايفترون عن نقل الأخبار إلى الحزب الأموي[3].

ثم يرجع المشيعون من أبناء علي عليه السلام وأقربائه، ولا يزالون يُقيمون العزاء إذ يدخل عليهم عبيد الله بن العباس، الذي كان والياً على البصرة من قِبَلِ علي عليه السلام، فيخرج الحسن إلى المسجد والمسلمون ينتظرون مقدمه على أحرّ انتظار؛ ذلك لأنه قبل أن يدخل على الإمام، وقف في الرأس خطيباً، وقال: «إن أمير المؤمنين تُوُفّي وقد ترك لكم خَلَفاً فإن أجبتم خرج إليكم وإن كرهتم فلا لأحد على أحد»[4].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج ٤، ص ١٣.

(٢) لابد أن ننبه القارئ إلى ما احتوت عليه رسالته من الدجل.

الرسالة هي: أن معاوية ذكر كتاب أشراف العراق إليه فإن كان ذلك كما ذكر فلم هذه الحرب ولِمَ حشد الجيش ولمحاربة مَنْ؟ إذا كان أهل العراق يريدون حكومته فَلِمَ يجمع ستين ألفاً، يخرج بهم إليه، وقد كان يمكنه أن يدخله مع شرذمة من أصحابه.

(٣) وفي التاريخ مظالم يقشعر منها الجلد، فلقد نبش بنو أمية آلافاً من المقابر علَّهم يعثرون على جثمان علي عليه السلام، فيتشفَّوا بإهانته، وأبى الله عليهم ذلك وآنافهم مرغومة.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٥، ص٢٢.

فضج الناس بالبكاء والعويل، وكأن قول ابن العباس فجَّر ينابيع الكآبة والحزن في القلوب، ثم نادوا بأعلى أصواتهم: بل يخرج إلينا، فخرج إليهم الإمام الحسن عليه السلام، وحمد الله وأثنى عليه، ثم أبَّنَ فقيد العالم الإسلامي، وقال:

«لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ لَمْ يَسْبِقْهُ الْأَوَّلُونَ بِعَمَلٍ، وَلَمْ يُدْرِكْهُ الْآخِرُونَ بِعَمَلٍ. لَقَدْ كَانَ يُجَاهِدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَيَقِيهِ بِنَفْسِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يُوَجِّهُهُ بِرَايَتِهِ فَيَكْنِفُهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَنْ يَمِينِهِ وَمِيكَائِيلُ عليه السلام عَنْ شِمَالِهِ، وَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ. وَلَقَدْ تُوُفِّيَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي عُرِجَ فِيهَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَالَّتِي قُبِضَ فِيهَا يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَصِيُّ مُوسَى، وَمَا خَلَّفَ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا سَبْعَمِائَةِ دِرْهَمٍ فَضَلَتْ عَنْ عَطَائِهِ أَرَادَ أَنْ يَبْتَاعَ بِهَا خَادِماً لِأَهْلِهِ..»[1].

ثم خنقته العبرة، فبعث بأنفاسه زفرات يهز الصخر لها لوعةً وأسىً، وارتفع من الناس حسرات تبعتها آهات وآهات، ثم قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، أَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ، أَنَا ابْنُ النَّذِيرِ، أَنَا ابْنُ الدَّاعِي إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ، أَنَا ابْنُ السِّرَاجِ الْمُنِيرِ، أَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً، أَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَرَضَ اللهُ مَوَدَّتَهُمْ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ فَالْحَسَنَةُ مَوَدَّتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[2].

وهكذا انهالت الجماهير إلى بيعة الإمام الحسن عليه السلام، عن رضاً وطيب نفس، لأنهم رأوا فيه المثال الفاضل لمؤهلات الخليفة الحق،

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٦٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٦٢.

وعلى كلِّ حالٍ يجب أن يكون إمام المسلمين مختاراً من قبل الله تعالى منصوصاً عن لسان النبي صلى الله عليه وآله قمةً في المكرمات والفضائل، أكفأ الناس وأورعهم وأعلمهم، والحسن عليه السلام كذلك، قد توافرت فيه شروط والي أمر المسلمين بأكمل وجه وأحسنه. وهو صاحب النص المأثور عن الرسول العظيم: «**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا**»[1].. وهو الذي شهد والده في حقه فقال:

«هم (يعني آل الرسول) **عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الجَهْلِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَخْبَرَكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ جَهْلِهِمْ، وَحُكْمُ مَنْطِقِهِمْ عَنْ صَمْتِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ الحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَقَدْ خَلَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ سُنَّةٌ، وَمَضَى فِيهِمْ مِنَ اللهِ حُكْمٌ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاعْقِلُوهُ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَتِهِ، وَلَا تَعْقِلُوهُ عَقْلَ رِوَايَتِهِ؛ فَإِنَّ رُوَاةَ الْكِتَابِ كَثِيرٌ وَرُعَاتَهُ قَلِيل**»[2].

... وبايعه الناس بعد أن حضّهم عليها خيار الصحابة والأنصار، فقد قال في ذلك عبيد الله بن العباس: «معاشر الناس هذا ابن نبيّكم، ووصي إمامكم فبايعوه»[3].

وكان للإمام الحسن عليه السلام حُبٌّ في القلوب نابعٌ عن صميم قلوب المسلمين، وقد اتّخذ أصله عن حُبِّ النبيِّ صلى الله عليه وآله له، وحُبِّ الله تعالى لمن أَحبه النبي.

أضف إلى ذلك، ما كانت تقتضيه الظروف، من رجل يقابل معاوية ومن التفَّ حوله من الحزب الأموي الماكر، وله من كفاءة

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٩١.
(٢) نهج البلاغة، من خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله، رقم ٢٣٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٦٢.

القيادة، وسداد الرأي، والمودة في قلوب المسلمين.

لذلك أسرع المسلمون إلى بيعته قائلين: «ما أحبه إلينا، وأوجب حقَّه علينا، وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة»[1].

وجاء في مقدمة الزعماء المجاهدين الأنصاري الثائر، قيس بن سعد فبايعه وهو يقول:

«ابْسُطْ يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيه، وقتال المحلين!».

فقال له الإمام: **«عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ عَلَىٰ كُلِّ شَرْطٍ»**.

وتمت البيعة، في العقد الثالث من شهر رمضان المبارك بعد أربعين عاماً من الهجرة النبوية. وكلما دخل فوج يبايعونه قال لهم: **«تُبَايِعُوْنَ لِيْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَتُحَارِبُوْنَ مَنْ حَارَبْتُ، وَتُسَالِمُوْنَ مَنْ سَالَمْتُ..»**[2].

فلما استوى الإمام عليه السلام على الحكم، فُرضت عليه مسؤولية حسم الخلاف بين المعسكرين، الذي كان في طريقه إلى هدِّ ركن الإسلام هدًّا، حيث إن الكفار في أطراف البلاد الإسلامية كانوا يتربصون بها الدوائر حتى إذا رأوا ضعفاً أو ثغرة سدّدوا ضربة مؤلمة عليها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر كانت أنباء جيش الشام تُذاع في الكوفة والبصرة وسائر البلاد مع شيء من المبالغة. وكان الجميع يعلم أن حرباً وشيكة تنتظرهم.

وعندما حشد معاوية جيشه الجرار الذي انتهى عدده إلى ستين

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٦٢.
(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص١٣٣.

ألفاً، وقاده هو بنفسه بعدما استخلف مكانه الضحاك؛ فكان على الإمام عليه السلام أن يحشد قوة الحق أيضاً لتُقابل جولة الباطل، بيد أنه رأى أن يُراسله قبل ذلك، إتماماً للحجة وقطعاً للعذر.

فأرسل إليه كتاباً، هذا بعضه: « **فَلَمَّا تُوُفِّيَ** (أيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) **تَنَازَعَتْ سُلْطَانَهُ الْعَرَبُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ قَبِيلَتُهُ وَأُسْرَتُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُنَازِعُونَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَحَقَّهُ، فَرَأَتِ الْعَرَبُ أَنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ قُرَيْشٌ وَأَنَّ الْحُجَّةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُمْ أَمْرَ مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله وسلم **فَأَنْعَمَتْ**[1] **لَهُمْ وَسَلَّمَتْ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ حَاجَجْنَا نَحْنُ قُرَيْشاً بِمِثْلِ مَا حَاجَّتْ بِهِ الْعَرَبُ فَلَمْ تُنْصِفْنَا قُرَيْشٌ إِنْصَافَ الْعَرَبِ لَهَا، إِنَّهُمْ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ دُونَ الْعَرَبِ بِالْإِنْصَافِ وَالِاحْتِجَاجِ فَلَمَّا صِرْنَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَأَوْلِيَاءَهُ إِلَى مُحَاجَّتِهِمْ وَطَلَبِ النَّصَفِ مِنْهُمْ بَاعَدُونَا وَاسْتَوْلَوْا بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى ظُلْمِنَا وَمُرَاغَمَتِنَا وَالْعَنَتِ مِنْهُمْ لَنَا، فَالْمَوْعِدُ اللهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ النَّصِيرُ**»[2].

ثم قال: « **فَالْيَوْمَ فَلْيَتَعَجَّبِ الْمُتَعَجِّبُ مِنْ تَوَثُّبِكَ يَا مُعَاوِيَةُ عَلَى أَمْرٍ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، لَا بِفَضْلٍ فِي الدِّينِ مَعْرُوفٍ، وَلَا أَثَرٍ فِي الْإِسْلَامِ مَحْمُودٍ، وَأَنْتَ ابْنُ حِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ وَابْنُ أَعْدَى قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم. **وَلَكِنَّ اللهَ حَسِيبُكَ فَسَتَرِدُ فَتَعْلَمُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ، وَبِاللهِ لَتَلْقَيَنَّ عَنْ قَلِيلٍ رَبَّكَ ثُمَّ لَيَجْزِيَنَّكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ..**»[3].

وقال: « **وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى الْكِتَابِ إِلَيْكَ الْإِعْذَارُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْرِكَ، وَلَكَ فِي ذَلِكَ إِنْ فَعَلْتَهُ الْحَظُّ الْجَسِيمُ وَالصَّلَاحُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَدَعِ التَّمَادِيَ فِي الْبَاطِلِ وَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ**

(١) أيّ صدقتهم بقوله: نعم.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٩ - ٤٠.

بَيْعَتِي؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيبٌ، وَاتَّقِ اللهَ وَدَعِ الْبَغْيَ وَاحْقُنْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَوَاللهِ مَا لَكَ مِنْ خَيْرٍ فِي أَنْ تَلْقَى اللهَ مِنْ دِمَائِهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ لَاقِيهِ بِهِ، وَادْخُلْ فِي السِّلْمِ وَالطَّاعَةِ، وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ، لِيُطْفِئَ اللهُ النَّائِرَةَ بِذَلِكَ، وَيَجْمَعَ الْكَلِمَةَ، وَيُصْلِحَ ذَاتَ الْبَيْنِ. وَإِنْ أَنْتَ أَبَيْتَ إِلَّا التَّمَادِيَ فِي غَيِّكَ سِرْتُ إِلَيْكَ بِالْمُسْلِمِينَ فَحَاكَمْتُكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ..»[1].

وبعد ما تُبودلت الرسائل بين القيادتين، ومنها رسائل الحسن عليه السلام تقوم بالحجة الدامغة التي ملاكها النقد والتجربة، ورسائل معاوية التي تقوم على المراوغة وإعطاء العهود والمواثيق على تقسيم بيت المال على حساب الوجاهات والمراتب القبلية الزائفة؛ بعد ذلك وردت الأنباء بخبر احتشاد الجيش الأموي وابتدائه بالمسير إلى الكوفة، وكان على الإمام عليه السلام أن يتصدى لمقابلته، ولكنّ طريقة تعبئة الجند عند الإمام كانت تختلف كثيراً عن طريقة معاوية في ذلك. فمعاوية كان ينتقي ذوي الضمائر الميتة، والقلوب السود، فيشتريها بأموال المسلمين، وكان يستدعي بعض النصارى فيغريهم بالأموال الطائلة لمحاربة الإمام، وهم آنذاك لايرون فصيلاً من ذلك لأنهم كانوا يرون في شخص الإمام عليه السلام المثال الكامل للإسلام، ذلك الدين الذي يبغضونه ويعادونه.

أما الإمام عليه السلام، فإنه كان يلاحظ في الجند أشياء كثيرة. فلم يكن يُطعم أصحاب الوجاهة ويترك السواد يتضورون جوعاً. ولم يكن يعد الناس بالوعود الفارغة ثم يخلفها بعد أن يستتب له الأمر. ولم يكن يهب ولاية البلاد المختلفة بغير حساب لهذا أو ذاك، ولا كان يحمل الناس

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٤٠.

على الحرب حملاً قاسياً وهم لها منكرون. ولم يكن يبيح للجند الفتك، وهتك الحرمات وابتياع الأسرى، وهو عليه السلام يعتبر عدوه فئة باغية من المسلمين يجب أن تُردع بأحسن طريقة ممكنة، ولكن معاوية وحزبه كانوا يرون مقابليهم عدواً سياسيًّا يجب أن يُمزق بأي أسلوب.

ولذلك فقد كان جمع الجيش ميسراً عند معاوية، وعلى عكس الأمر عند الإمام عليه السلام حيث كان ذلك من الصعوبة بمكان.

ولطالما أشار عليه بعض أصحابه بأن يتَّبع منهج معاوية في ذلك فأبى وأنكر عليهم الميل إلى الباطل والانحراف عن الحق.

وقد كتب إليه عبيد الله بن العباس واليه على البصرة يقول:

«أما بعد، فإن المسلمين ولَّوك أمرهم بعد علي عليه السلام فشمر للحرب وجاهد عدوك، وقارب أصحابك واشترِ من الظنين دينَه بما لا يلثم لك دنياه، وولِّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق، وكانت عواقبه تؤدّي إلى ظهور العدل وعزّ الدين؛ خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور، وذل المؤمنين وعزّ الفاجرين، واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلَّا في حرب أو إصلاح بين الناس، فإن الحرب خُدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً ما لم تبطل حقًّا.

واعلم أن عليًّا أباك، إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم في الفيء، وسوَّى بينهم في العطاء فثقل عليهم. واعلم أنك تحارب مَنْ حارب الله وَرسوله في ابتداء الإسلام، حتى ظهر أمر الله. فلما وُحِّدَ الرب ومُحق الشرك وعَزَّ الدين، أظهروا الإيمان وقرؤوا القرآن، مستهزئين بآياته، وقاموا الى الصلاة وهم كُسالى، وآتوا الفرائض وهم

لها كارهون»(١).

ثم راح ابن العباس يستعرض الوضع الاجتماعي والمساوئ التي فيه، وبيّن طبيعة البيت الأموي وماضيه وحاضره هذا.. ولكن الإمام عليه السلام أبى إلّا أن يلزم الحقَّ شرعةً ومنهاجاً، ويتّبع السبيل القويم، أبداً ودائماً.

ومع ذلك فقد حشّد من أهل الكوفة عدداً كبيراً، ولم يهمنا تحديده وضبطه، ولكن الذي يهمنا تحليل نفوس المنتسبين إليه، ومَنْ كانوا، ولِمَ جاؤوا وماذا كانت النتيجة؟

لقد قسّم المؤرخون جيشه إلى أقسام:

١- الشيعة المخلصون الذين اتَّبعوه لأداء واجبهم الديني، وإنجاز مهمتهم الإنسانية، وهم قلة.
٢- الخوارج الذين كانوا يريدون محاربة معاوية والحسن، فالآن وقد سنحت الظروف فليحاربوا معاوية حتى يأتي دور الحسن عليه السلام.
٣- أصحاب الفتن والمطامع الذين يبتغون من الحرب مغنماً لدنياهم.
٤- شكّاكون لم يعرفوا حقيقة الأمر من هذه الحرب، فجاؤوا يلتمسون الحجة لأيٍّ تكون، يكونون معه.
٥- أصحاب العصبية الذين اتَّبعوا رؤساء القبائل على استفزازهم لهم على حساب القبيلة والنوازع الشخصية.

هذه هي العناصر الأصيلة للجيش، وهي طبعاً لا تفي لإنجاز المهمة التي تكون من أجلها، حيث إن الحرب تريد الإيمان، والوحدة،

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٦، ص٢٣ - ٢٤.

والطاعة.

ثم بعث بأول سريّة لتشكِّل مقدمة الجيش تحت إمرة عبيد الله بن العباس، الذي فُضِّل لهذه المهمة من جهات شتى:

أولاً: لأنه كان الداعية الأول للحرب.

وثانياً: لأنه كان ذا سمعة طيبة في الأوساط.

وثالثاً: لأنه كان موتوراً بولديه العزيزين الذين قتلهما جنود معاوية. ثم إنه كان يشده إلى الإمام القرابة.

وزحف ابن العباس بالجيش إلى (مسكن[1] على نهر دجلة) التقى بمعسكر معاوية، ينتظر تلاحق السريّات الأخرى من الكوفة.

وفي الكوفة، خليط من الناس مختلفون، فهناك من أنصار معاوية الذين أفسدتهم هدايا الحزب الأموي ومواعيده، وهناك بعض الخوارج القشريين، وهناك من يثبّط الناس عن الجهاد، وهناك أهل البصائر يُلهبون حماس الشعب، ويحرّضونهم لقتال أهل البغي بشتى أساليب الاستنهاض. والإمام الحسن عليه السلام لا يزال يبعث الخطباء المفوّهين، والوجهاء البارزين إلى الأطراف، يدعوهم إلى نصرته، ولا يزال أيضاً يُلهب أفئدة الكوفيين بالخطبة إثر الأخرى.

ولكن أهل الكوفة كانوا باردين كالثلج أمام هذه الدعوة، لأن الحروب الطاحنة التي سبقت عهد الإمام (من الجمل إلى صِفِّين والنهروان) قد أنهكتهم، وقد أعرب الإمام الحسن نفسه في مناسبة عن هذه العلة التي تثبّط عزيمة أهل الكوفة عن الخروج معه فقال: «**وَكُنْتُمْ تَتَوَجَّهُونَ مَعَنَا وَدِينُكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمُ الْآنَ وَدُنْيَاكُمْ**

(١) موضع قريب من (أوانا) على نهر دجلة.

أَمَامَ دِينِكُمْ. وَكُنَّا لَكُمْ وَكُنْتُمْ لَنَا، وَقَدْ صِرْتُمُ الْيَوْمَ عَلَيْنَا، ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ تَصُدُّونَ قَتِيلَيْنِ: قَتِيلًا بِصِفِّينَ تَبْكُونَ عَلَيْهِمْ، وَقَتِيلًا بِالنَّهْرَوَانِ تَطْلُبُونَ بِثَأْرِهِمْ، فَأَمَّا الْبَاكِي فَخَاذِلٌ وَأَمَّا الطَّالِبُ فَثَائِرٌ»[1].

وبالرغم من معاكسة كلّ الظروف، فإن أصحاب الحق قرروا اقتحام غمار الجهاد المقدس، علَّهم يكونون الفاتحين.

ولكنها فعلتْ مكائدُ معاوية فعلَها، حيث كان قد سخّر طائفةً غير قليلة من ذوي الأطماع، يدبرون له مؤامراته، فيبثون الشائعات عن قوة جيش الشام، وقلة جند الكوفة، وضعفه، وعدم القدرة على مقاومته، وعملت الدنانير والدراهم عملها الخبيث الأرعن. فإذا بالعدة المعتمد عليها من قواد جيش الإمام الحسن عليه السلام ينهارون أمام قوة إعلام معاوية، أو قوة إغرائه.

ورغم أن قيادة السرية من جيش الإمام، كانت حكيمة، تحت لواء عبد الله بن العباس فقد ذهبت ضحية مكر معاوية، وتغرير القائد، وإليك القصة:

أرسل الإمام ابن عمه لملاقاة معاوية وكتب إليه هذه الوصية: **«يَا بْنَ عَمٍّ! إِنِّي بَاعِثٌ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِنْ فُرْسَانِ الْعَرَبِ وَقُرَّاءِ الْمِصْرِ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَزِيدُ الْكَتِيبَةَ، فَسِرْ بِهِمْ وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَافْرُشْ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَدْنِهِمْ مِنْ مَجْلِسِكَ؛ فَإِنَّهُمْ بَقِيَّةُ ثِقَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَسِرْ بِهِمْ عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ حَتَّى تَقْطَعَ بِهِمُ الْفُرَاتَ حَتَّى تَسِيرَ بِمَسْكِنَ، ثُمَّ امْضِ حَتَّى تَسْتَقْبِلَ بِهِمْ مُعَاوِيَةَ، فَإِنْ أَنْتَ لَقِيتَهُ فَاحْتَبِسْهُ حَتَّى آتِيَكَ فَإِنِّي عَلَى أَثَرِكَ وَشِيكاً، وَلْيَكُنْ خَبَرُكَ عِنْدِي كُلَّ يَوْمٍ. وَشَاوِرْ هَذَيْنِ يَعْنِي قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ، وَإِذَا لَقِيتَ**

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢١.

مُعَاوِيَـةَ فَلَا تُقَاتِلْهُ حَتَّى يُقَاتِلَكَ، فَإِنْ فَعَـلَ فَقَاتِلْهُ، فَإِنْ أُصِبْتَ فَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى النَّاسِ فَإِنْ أُصِيبَ فَسَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى النَّاس»[1].

ثم سار بنفسه -بعد أيام- في عدد هائل من الجيش، لعله كان ثلاثين ألفاً أو يزيدون، حتى بلغ مظلم ساباط، التي كانت قريبة من المدائن، فعملت دسائس معاوية في مقدمة جيش الإمام، فأذيع بين الناس نبأ كان له أثر عميق في صفوف الجيش. وكان النبأ يقول: «إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح فَلِمَ تقتلون أنفسكم؟» ثم أخذ يستميل قادة الجيش بالمال والوعود، فإذا هم يتسللون إليه في خفاء، ويكتب عبيد الله نبأ ذلك إلى الإمام. ولكن مؤامرته تلك لم تكن بذات أهمية، حتى اشترى ضمير القائد الأعلى فكتب إليه يقول:

«إن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلِّم الأمر إليّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلّا دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أعطيك ألف ألف درهم أُعجِّل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر»[2].

إن معاوية مكر بعبيد الله بثلاثة أساليب، فإنه قال له:

أولاً: إن الحسن يراسله في الصلح، وهذه أول ما هدَّت أركان عبيد الله، فقال في نفسه: إذن فلم أُسيء سمعتي في التاريخ، وأحمل خطيئة الدماء التي تهراق تحت لوائي. ثم قال له:

ثانياً: كن متبوعاً، فغرَّه بالرئاسة.

وأخيراً: وعده بمليون درهم، وهذا الأخير كان أهم الثلاثة، في شخص ألزمه إمامه بالعدل، والمساواة مع أقل الناس.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٥١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٥١.

فانْسَـلَّ عبيد الله القائد العام دون أن يُخـبر أحداً، فأصبح الجيش يبحـث عن القائـد ليُقيم بهم صـلاة الصبح فلا يجده، فقـام قيس الثاني للجيـش يصـلي بالناس الصبـح، ثم لما انتهـى خطب فيهم يُهـدِّئ روع الناس، ويُطمْئِنَ قلوبهم ويقول:

إن هذا وأباه لم يأتوا بيوم خيراً قط، إن أباه عمّ رسـول الله، خرج يقاتله ببدر، فأسره كعب بن عمرو الأنصاري، فأتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخـذ فـداءه، فقسّـمه بين المسـلمين، وإن أخـاه ولاه عليٌّ عـلى البصرة فسرق ماله، ومال المسـلمين، فاشـترى به الجواري، وزعـم أن ذلك له حـلال. وإنَّ هـذا ولّاه عليٌّ على اليمن، فهرب مـن بسر بن أرطاة وترك ولده، حتى قُتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع.

فإذا بالجيش يصبح مؤيداً.

الحمـد لله الذي أخرجه من بيننـا. إلَّا إنّ هذا الجيش الذي هرب قائـده إلى معسـكر العدو، لم يكـن في وضع يقاوم جيـش معاوية لذلك تفرّق أكثره ولم يبقَ منه إلَّا ربع عدده أربعة آلاف فقط.

وإن هذا العـدد الهائل الذي انتقص من اثني عشر بعث الخيبة في نفـوس الجند في المقدمة، كما بعث الخيبة في نفوس سـائر الجيش الثاوي في مظلـم سـاباط، حيث كان الإمام وحيـث كان الجيش الذي انتشرت فيه دعايات معاوية، التي لازالت تُبث فيه عبر جواسيسه. وبدأ بعضهم يتسللون إلى معاوية وكتب بعضهم إليه: أن لو شئت جئنا بالحسن إليك أسيراً، ولو شئت قتلناه. وجاءت عطايا معاوية التي زادت على مئة ألف غالباً، ووعوده بتزويج بناته لهذا القائد أو ذاك.

وهكـذا نسـتطيع أن نعرف مـدى ضغط الظـروف التي أجبرت الإمـام عليه السلام عـلى الصلح، مـن هذه الخطبـة اللاهبة، التـي ألقاها على

مسامع المساومين بالضمائر، الذين كانوا يُشكّلون الأغلبية الساحقة من جيشه عليه السلام. ويظهر من هذه الخطبة أنهم كانوا متأثرين بدعايات معاوية إلى حد بعيد، حيث كانوا يُلحُّون على الإمام بالتنازل عن حقه ومبايعة معاوية والإمام يأبى عليهم ذلك، كما يظهر أنه كان من الوجهاء مَنْ فَكَّرَ في اغتيال الإمام، كما اغتال صاحبُه أباه عليه السلام.

وبعد كلّ ذلك كانت الظروف تُكره الإمام على الصلح مع معاوية إلى أجل هم بالغوه، فكتب إلى معاوية أو كتب إليه معاوية، على اختلاف بين المؤرخين في شأن الصلح، ورضي الطرفان بذلك بعد أن اتفقا على بنوده التي لم تكن ترجع إلى الإمام إلّا بالخير، وعلى الأمة إلّا بالصلاح.

ومن راجع كلمات الإمام الحسن عليه السلام التي قالها بعد الصلح لأصحابه بعد أن أنكروا عليه ذلك يعرف مدى تأثر قضيته بالظروف المعاكسة التي لم تزل ترفع إليهم بالفتنة إثر الفتنة.

لقد قال لأحدهم إذ ذاك[1]: «**لَسْتُ مُذِلاًّ لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَلَكِنِّيْ مُعِزُّهُمْ، مَا أَرَدْتُ بِمُصَالَحَتِيْ إِلَّا أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ القَتْلَ، عِنْدَمَا رَأَيْتُ تَبَاطُؤَ أَصْحَابِيْ وَنُكُوْلَهُمْ عَنِ القِتَالِ**».

وقال للآخر في هذا الشأن -وقد كان من الخوارج الذين لم يكن بغضهم للحسن عليه السلام وشيعته بأقل من بغضهم لمعاوية وأصحابه- قال له: «**وَيْحَكَ أَيُّهَا الخَارِجِيُّ!! لَا تَقْصِ، فَإِنَّ الَّذِيْ أَحْوَجَنِيْ إِلَىْ مَا فَعَلْتُ قَتْلُكُمْ أَبِيْ، وَطَعْنُكُمْ إِيَّايَ، وَانْتِهَابُكُمْ مَتَاعِيْ. وَإِنَّكُمْ لَمَّا سِرْتُمْ إِلَىْ صِفِّيْنَ، كَانَ دِيْنُكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمُ اليَوْمَ وَدُنْيَاكُمْ أَمَامَ**

(١) قال ذلك.

دِيْنِكُـمْ، وَيْحَـكَ أَيُّهَا الخَارِجِيُّ! إِنِّيْ رَأَيْتُ أَهْلَ الكُوْفَةِ قَوْماً لَا يُوْثَقُ بِهِمْ، وَمَـا اغْتَرَّ بِهِمْ إِلَّا مَنْ ذَلَّ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَافِقُ رَأْيَ الآخَرِ. وَلَقَدْ لَقِيَ أَبِيْ مِنْهُمْ أُمُوْراً صَعْبَةً، وَشَدَائِدَ مُرَّةً، وَهِيَ أَسْرَعُ البِلَادِ خَرَاباً وَأَهْلُهَا هُمْ الَّذِيْنَ فَرَّقُوْا دِيْنَهُمْ وَكَانُوْا شِيَعاً»(١).

ولذلـك ولغيره من الأسـباب صالح الإمـام معاوية، وكتب إليه هذه الوثيقة التالية:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

هَـذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ الحَسَـنُ بْـنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِـبٍ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ صَالحَهُ عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ وِلَايَةَ أَمْرِ المُسْلِمِينَ عَلَى:

١ - أَنْ يَعْمَلَ فِيهِمْ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَسِيرَةِ الخُلَفَاءِ الصَّالِحِينَ.

٢ - وَلَيْسَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُـفْيَانَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ عَهْداً بَلْ يَكُونُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِه لِلْحَسَنِ ثُمَّ لِأَخِيْهِ الحُسَيْنِ.

٣- وَعَـلَى أَنَّ النَّـاسَ آمِنُونَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ أَرْضِ اللهِ فِي شَـامِهِمْ وَعِرَاقِهِمْ وَحِجَازِهِمْ وَيَمَنِهِمْ.

٤ - وَعَلَى أَنَّ أَصْحَابَ عَلِيٍّ وَشِـيعَتَهُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنِسَـائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَعَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بِذَلِكَ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ بِالْوَفَاءِ وَبِمَا أَعْطَى اللهُ مِنْ نَفْسِهِ.

٥ - وَعَلَى أَلَّا يَبْغِيَ لِلْحَسَـنِ بْنِ عَلِيٍّ وَلَا لِأَخِيهِ الحُسَـيْنِ وَلَا لِأَحَدٍ مِـنْ أَهْـلِ بَيْتِ رَسُـولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم غَائِلَةً سِرًّا وَلَا جَهْـراً، وَلَا يُخِيفَ أَحَداً

(١) تذكرة الخواص، ص ٢٠٧.

مِنْهُمْ فِي أُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ .

شَهِدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَالسَّلَام وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً»[1]

والموثـوق أن محل الصلح كان مسـكن سـاباط، قريبـاً من موقع مدينة بغداد اليوم، حيث كان معسـكر الإمام الحسـن عليه السلام. فلما أن تمّ ذلك رجع الإمام بمن معه إلى الكوفة.

استراتيجية الصلح عند الإمام الحسن عليه السلام:

ما أكرم أبا محمّد الحسـن المجتبى عليه السلام، وأسـخى تضحيته حين أقدم على (الصلح) الذي اعتبره بعض حواريِّه ذُلاًّ وزعَمَهُ أعداؤه جبناً واستسـلاماً، ولم يكن إلّا أروع صـور النصر على الذات، ومقاومة نزوة الهوى والمحافظة على دماء المسـلمين، وتحقيقاً لكلمة الرسـول الصادق المصدّق صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِين**»[2].

فلولا أنّ الحسـن كان قدوة الصلاح، وأسوة التضحيات، وجماع المكرمـات، وكان بالتـالي الإمام المؤيَّد بالغيب؛ لتمزقت نفسـه الشريفة بصعود معاوية أريكة الحكم، وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«**إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِي فَاقْتُلُوه، وَلَنْ تَفْعَلُوا**».

ولـولا اتصال قلبه الكبير بـروح الرب إذاً لمات كمداً. حيث كان يرى تقهقر المسلمين وصعود نجم الجاهلية الجديدة.

(١) ذكـر هذه الوثيقة العلّامة باقر شريف القرشي عن الفصـول المهمة، ص ١٤٥، وكشف الغمـة، ص ١٧٠، والبحار، ج ١٠، ص ١١٥. وغيرها ثم علّق عليها: هذه الصورة أفضل صورة وردت مبينة لكيفية الصلح.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٩٨.

ولـولا حلمه العظيم النابع من قوة إيمانه بالله وتسـليمه لقضائه، إذاً ما صبر على معاوية. وهو يرقى منبر جده، ويمزق منشـور الرسـالة، ويسبّ أعظم الناس بعد الرسول.

بلى، ولكنّ الحسـن عليه السلام آثر الآخـرة على الدنيـا. وقَبِلَ الصلح للأسباب التالية:

١- إن نظـرة أهـل البيـت عليهم السلام إلى الحكـم كانـت تنبـع من أنه وسـيلةً لتحقيق قيم الرسـالة. فإذا مال الناس عن الدين الحق، وغلبت المجتمـع الطبقات الفاسـدة، وأرادت تحويل الديـن إلى مطية لمصالحهم اللامشروعة.

فليذهـب الحكـم إلى الجحيـم.. لتبقـى شـعلة الرسـالة متقـدة، ولتصب كلّ الجهود في سـبيل إصلاح المجتمع أولاً، وبشـتى الوسـائل المتاحة.

لقد قال الإمام علي عليه السلام عن أسـلوب الحكم: «**وَ اللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَـى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْـدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَـدْرِ كُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالمَكِيدَةِ وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ**»[1].

أمـا عن نظرتـه إلى الحكم ذاته فقد رُوي عن عبـد الله بن العباس أنه قال:

«دَخَلْـتُ عَـلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِـذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِـفُ نَعْلَهُ. فَقَالَ لِي: **مَا قِيمَةُ هَذِهِ النَّعْلِ**؟.

فَقُلْتُ لَا قِيمَةَ لَهَا.

(١) نهج البلاغة، ص ٣١٨. كلمة (٢٠٠) - إعداد صبحي الصالح -.

قَالَ عليه السلام: وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً»(١).

٢- ولقد عاش الإمام الحسن عليه السلام مرحلة هبوط الروح الإيمانية عند الناس، وبالذات في القبائل العربية التي خرجت من جو الحجاز. وانتشرت في أراضي الخير والبركات، فنسيت رسالتها أو كادت.

فهذه كوفة الجند التي تأسست في عهد الخليفة الثاني لتكون حامية الجيش، ومنطلقاً لفتوحات المسلمين الشرقية، أصبحت اليوم مركزاً لصراع القبائل، وتسييس العسكر. وأخذ يتبع من يعطي أكثر. فبالرغم من وجود قبائل عربية حافظت على ولائها للإسلام والحق، ولخط أهل البيت الرسالي. إلَّا أن معظم القبائل التي استوطنت أرض السواد حيث الخصب والرفاه بدأت تبحث عن العطاء، حتى أنهم تفرَّقوا عن القيادة الشرعية، وبدؤوا يراسلون المتمردين في الشام حينما عرفوا أنّ معاوية يبذل أموال المسلمين بلا حساب، بل إنك تجد ابن عمِّ الإمام الحسن وقائد قوات الطليعة في جيشه، عبيد الله بن العباس، يلتحق بمعاوية طمعاً في دراهمه البالغة مليون درهمٍ.

ونجد الكوفة تخون مرة أخرى إمام الحق الحسين عليه السلام، حينما يبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل. فيأتيهم ابن زياد ويمنِّيهم بأن يزيد في عطائهم عشرة. فإذا بهم يميلون إليه ويُقاتلون سبط رسول الله وأهل بيته بأبشع صورة، ودون أن يسألوا ابن زياد عمّا يعنيه بكلمة عشرة. فإذا به يزيد في عطائهم عشرة تُميرات فقط.. ولعلَّهم كانوا يُمَنُّون أنفسهم بعشرة دنانير!!

(١) بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٧٦.

لقـد تعبت الكوفة من الحروب، وبدأت تفكر في العيش الرغيد. وغـاب عنهـم أهـل البصائر الذيـن كانوا يحومـون حول أمـير المؤمنين علي بـن أبي طالـب، ويذكِّـرون النـاس باليوم الآخـر، ويبيّنـون للناس فضائـل إمامهم الحـق. لقد غاب عنهـم اليوم عمار بن يـاسر الذي كان ينادي بين الصَّفَّيْن في معركة صِفِّين: الرواحَ إلى الجنة!. ومالك الأشـتر الـذي كان لعـليٍّ عليه السلام مثلما كان عليٌّ لرسـول الله صلى الله عليه وآله بطـلاً مقداماً، وقائداً ميدانيًّا محنكاً.

وغـاب ابن التيهان الذي يعتبره الإمام علي عليه السلام أخاً له، ويتأوَّه لغيابـه، بـلى لقد غـاب أهـل البصائر مـن أصحـاب الرسـول وأنصار عـلي عليه السلام الذيـن كان أمـير المؤمنـين عليه السلام يعتمـد عليهـم في إدارتـه للحروب.

وغاب القائد المقـدام، البطل الهمام، الإمام علي عليه السلام أيضاً، بعد أن أنهـى سـيف الغـدر حياته الحافلة بالأسـى، فإنه كان قـد صعد المنبر قبيل استشـهاده، وقد نشر المصحف فوق رأسـه وهو يدعو ربه ويقول: **«مَا يَحْبِسُ أَشْـقَاكُمْ أَنْ يَجِيءَ فَيَقْتُلَنِي. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَـئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَرِحْهُمْ مِنِّي وَأَرِحْنِي مِنْهُم»**(١).

وبالرغـم من أن الإمـام عليًّا كان قد جهّز جيشـاً لمقارعة معاوية قبيـل استشـهاده. وهو ذلـك الجيش الذي قاده من بعده الإمام الحسـن عليه السلام إلَّا أنّ خور عزائم الجيش، واختلاف مذاهبه وخيانة قواده، كان كفيلاً بهزيمته حتى ولو كان الإمام علي عليه السلام هو الذي يقوده بنفسه.

إلَّا أن التقديـر كان في استشـهاد البطل، وأن يتـم الصلح على يد

(١) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٩٦.

نجله العظيم الذي أخبر الرسول ﷺ أن الله سوف يُصلح به بين طائفتين من أمته.

ويشهد على ذلك ما جاء في حديث مأثور عن الحارث الهمداني قال: «لَمَّا مَاتَ عَلِيٌّ عليه السلام جاءَ النَّاسُ إِلَى الْحَسَنِ وَقَالُوا: أَنْتَ خَلِيفَةُ أَبِيكَ وَوَصِيُّهُ وَنَحْنُ السَّامِعُونَ الْمُطِيعُونَ لَكَ فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ، فَقَال: **كَذَبْتُمْ وَاللهِ مَا وَفَيْتُمْ لِمَنْ كَانَ خَيْراً مِنِّي فَكَيْفَ تَفُونَ لِي؟! وَكَيْفَ أَطْمَئِنُّ إِلَيْكُمْ؟! وَلَا أَثِقُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَمَوْعِدُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُعَسْكَرُ الْمَدَائِنِ؛ فَوَافُوا إِلَيَّ هُنَاكَ**»[1].

وماذا كان يمكن للإمام الحسن أن يصنعه في مثل هذه الظروف المعاكسة؟. هل يسير في جيشه بسيرة معاوية، ويوزّع عليهم أموال المسلمين، فمن رغب عنه عالجه بالعسل المسموم؟. أم يسير بسيرة أبيه حتى ولو كلّفه ذلك سلطته؟.

لقد ترك السلطة حين علم أنّها لم تعد الوسيلة النظيفة لأداء الرسالة، وأن هناك وسيلة أفضل وهي الانسحاب إلى صفوف المعارضة وبثّ الروح الرسالية في الأمة من جديد، عبر تربية القيادات، ونشر الأفكار، وقيادة المؤمنين الصادقين المعارضين للسلطة وتوسيع نطاق المعارضة. وهكذا فعل عليه السلام.

٣- وشروط الصلح التي أملاها الإمام على معاوية، وجعلها بذلك مقياساً لسلامة الحكم، تشهد على أنه عليه السلام كان يخطط لمقاومة الوضع الفاسد، ولكن عبر وسائل أخرى. لقد جاء في بعض بنود الصلح ما يلي:

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٤٣.

«١- أَنْ يَعْمَلَ (معاوية) فِيهِمْ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ الصَّالِحِينَ.

٢- وَلَيْسَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ عَهْداً بَلْ يَكُونُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِه لِلْحَسَنِ ثُمَّ لِأَخِيْهِ الْحُسَيْنِ.

٣- وَعَلَى أَنَّ النَّاسَ آمِنُونَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ أَرْضِ اللهِ فِي شَامِهِمْ وَعِرَاقِهِمْ وَحِجَازِهِمْ وَيَمَنِهِمْ.

٤- وَعَلَى أَنَّ أَصْحَابَ عَلِيٍّ وَشِيعَتَهُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَعَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بِذَلِكَ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ بِالْوَفَاءِ وَبِمَا أَعْطَى اللهُ مِنْ نَفْسِهِ.

٥- وَعَلَى أَلَّا يَبْغِيَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَلَا لِأَخِيهِ الْحُسَيْنِ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم غَائِلَةً سِرًّا وَلَا جَهْراً، وَلَا يُخِيفَ أَحَداً مِنْهُمْ فِي أُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ»(١).

إن نظرة خاطفة لهذه الشروط تهدينا إلى أنها اشتملت على أهم قواعد النظام الإسلامي من دستورية الحكم (على هدى الكتاب والسنّة) وشوريّة الحكم، وأنه مسؤول عن توفير الأمن للجميع وبالذات لقيادة المعارضة، وهم أهل بيت الرسول. وقد قبل معاوية بهذه الشروط، مما جعلها أساساً للنظام عند الناس. وقد وجد الإمام بذلك أفضل طريقة لتبصير الناس بحقيقته، وتأليب أصحاب الضمائر والدين عليه، حين كان يخالف بعض تلك الشروط.

قد تحمّل الإمام الحسن عناءً كبيراً في إقناع المسلمين بالصلح مع معاوية، حيث إنّ النفوس التي كانت تلتهب حماساً، والتي كانت معبأة

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٦٤.

نفسيًّا ضد معاوية، كانت تأبى البيعة معه. على أنّ القشريين من طائفة الخوارج كانت ترى كفر من أسلم الأمر إلى معاوية، وقد قالوا للإمام الحسن عليه السلام: «كَفَرَ وَاللهِ الرَّجُل»[1].

وقد خطب الإمام بعد صلحه مع معاوية في الناس وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَوْ طَلَبْتُمْ مَا بَيْنَ جَابَلْقَا وَجَابَرْسَا رَجُلًا جَدُّهُ رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **مَا وَجَدْتُمُوهُ غَيْرِي وَغَيْرَ أَخِي، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ نَازَعَنِي حَقًّا هُوَ لِي فَتَرَكْتُهُ لِصَلَاحِ الْأُمَّةِ وَحَقْنِ دِمَائِهَا، وَقَدْ بَايَعْتُمُونِي عَلَى أَنْ تُسَالِمُوا مَنْ سَالَمْتُ وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُسَالِمَهُ وَأَنْ يَكُونَ مَا صَنَعْتُ حُجَّةً عَلَى مَنْ كَانَ يَتَمَنَّى هَذَا الْأَمْرَ، وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**»[2].

ومع ذلك فقد عارضه بعض أفضل أصحابه في ذلك. فقال حجر بن عدي رضوان الله عليه له: «أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ مِتَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمِتْنَا مَعَكَ وَلَمْ نَرَ هَذَا الْيَوْمَ، فَإِنَّا رَجَعْنَا رَاغِمِينَ بِمَا كَرِهْنَا وَرَجَعُوا مَسْرُورِينَ بِمَا أَحَبُّوا».

ويبدو أن الإمام كره أن يجيبه في الملأ إلَّا أنه حينما خلا به قال: «**يَا حُجْرُ! قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ مَا تُحِبُّ وَلَا رَأْيُهُ كَرَأْيِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ مَا فَعَلْتُ إِلَّا إِبْقَاءً عَلَيْكُمْ، وَاللهُ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**»[3].

وكان سفيان من شيعة أمير المؤمنين والحسن عليه السلام، ولكنه دخل على الإمام وعنده رهط من الناس فقال له: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِين.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٤٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٥٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٥٧.

فقال له: **وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا سُفْيَان انزِلْ.**

يقول سفيان: فَنَزَلْتُ فَعَقَلْتُ رَاحِلَتِي ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: **كَيْفَ قُلْتَ يَا سُفْيَان؟**

قَالَ: قُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: **مَا جَرَّ هَذَا مِنْكَ إِلَيْنَا.**

فَقُلْتُ: أَنْتَ وَاللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَذْلَلْتَ رِقَابَنَا حِينَ أَعْطَيْتَ هَذَا الطَّاغِيَةَ الْبَيْعَةَ، وَسَلَّمْتَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّعِينِ ابْنِ آكِلَةِ الْأَكْبَادِ وَمَعَكَ مِائَةُ أَلْفٍ كُلُّهُمْ يَمُوتُ دُونَكَ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ عَلَيْكَ أَمْرَ النَّاسِ.

فقال عليه السلام: «**يَا سُفْيَانُ إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ إِذَا عَلِمْنَا الْحَقَّ تَمَسَّكْنَا بِهِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ عَلِيًّا عليه السلام يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «لَا تَذْهَبُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَجْتَمِعَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَجُلٍ وَاسِعِ السُّرْمِ، ضَخْمِ الْبُلْعُومِ، يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ، وَلَا يَمُوتُ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ» وَإِنَّهُ لَمُعَاوِيَةُ، وَإِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ ﴿اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ﴾**».

ثُمَّ أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَقُمْنَا إِلَى حَالِبٍ يَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَتَنَاوَلَ الْإِنَاءَ فَشَرِبَ قَائِماً، ثُمَّ سَقَانِي، وَخَرَجْنَا نَمْشِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لِي:

«**مَا جَاءَ بِكَ يَا سُفْيَانُ**»؟

قُلْتُ: حُبُّكُمْ وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

قَالَ: «**فَأَبْشِرْ يَا سُفْيَانُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عَلِيًّا عليه السلام يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ أَهْلُ بَيْتِي وَمَنْ أَحَبَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي كَهَاتَيْنِ يَعْنِي السَّبَّابَتَيْنِ، أَوْ كَهَاتَيْنِ يَعْنِي السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى إِحْدَاهُمَا**

تَفْضُلُ عَلَى الْأُخْرَى»، أَبْشِرْ يَا سُفْيَانُ فَإِنَّ الدُّنْيَا تَسَعُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ إِمَامَ الحَقِّ مِنْ آلِ مُحَمَّد ﷺ».

وفي بعض الأحيان كان الإمام الحسن عليه السلام يصد على أصحابه ببيعة معاوية. فحين دَخَلَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ صَاحِبُ شُرْطَةِ الْخَمِيسِ -الذي أسسه الإمام علي عليه السلام-، دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: بَايِعْ، فَنَظَرَ قَيْسٌ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ بَايَعْتَ؟ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَمَا تَنْتَهِي؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي...[1].

فَقَالَ لَهُ قَيْسٌ: مَا شِئْتَ، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ شِئْتُ لَتُنَاقَضَنَّ بِه[2].

قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ عليه السلام وَقَالَ لَهُ: «**بَايِعْ يَا قَيْسُ**» فَبَايَع»[3].

(١) يبدو أنّ معاوية أراد أن يهُدِّد قيساً. ولكنه سكت.
(٢) يبدو أنّ قيساً ردّ تهديدات معاوية، وقال: إن شئت فإني قادر على نقض العهد.
(٣)بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٦٢.

الفصل الثَّالث

مَوَاقِفُ مُشْرِقَةٌ

الإمام الحسن عليه السلام يجني ثمار الصلح:

وكان هدف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح فضح معاوية، وهدم أسس سلطته القائمة على القيم الجاهلية، وتنظيم صفوف المعارضة من جديد، واستغلال كل فرصة لبث روح الإيمان والتقوى في ضمائر الناس.

وفيما يلي نذكر بعضاً من مواقف الإمام مع سلطة معاوية التي كانت تهز عرشه، وتُلهم معارضيه أسلوب مقاومته:

ألف: بُعَيْدَ المصالحة صَعِدَ مُعَاوِيَةُ الْمِنْبَرَ وَجَمَعَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ وَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَآنِي لِلْخِلَافَةِ أَهْلًا وَلَمْ يَرَ نَفْسَهُ لَهَا أَهْلًا. وَكَانَ الْحَسَنُ عليه السلام أَسْفَلَ مِنْهُ بِمِرْقَاةٍ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ قَامَ الْحَسَنُ عليه السلام فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُبَاهَلَةَ، فَقَالَ:

«فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الْأَنْفُسِ بِأَبِي، وَمِنَ الْأَبْنَاءِ بِي وَبِأَخِي، وَمِنَ النِّسَاءِ بِأُمِّي، وَكُنَّا أَهْلَهُ وَنَحْنُ آلُهُ وَهُوَ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُ.

وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّطْهِيرِ جَمَعَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِي كِسَاءٍ لِأُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها خَيْبَرِيٍّ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ! هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَعِتْرَتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ

وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً. فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي الْكِسَاءِ غَيْرِي وَأَخِي وَأَبِي وَأُمِّي. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ تُصِيبُهُ جَنَابَةٌ فِي الْمَسْجِدِ وَيُولَدُ فِيهِ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ وَأَبِي تَكْرِمَةً مِنَ اللهِ لَنَا وَتَفْضِيلًا مِنْهُ لَنَا. وَقَدْ رَأَيْتُمْ مَكَانَ مَنْزِلِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَأَمَرَ بِسَدِّ الْأَبْوَابِ فَسَدَّهَا وَتَرَكَ بَابَنَا. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسُدَّهَا وَأَفْتَحْ بَابَهُ وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَسُدَّهَا وَأَفْتَحَ بَابَهُ.

وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ زَعَمَ لَكُمْ أَنِّي رَأَيْتُهُ لِلْخِلَافَةِ أَهْلًا وَلَمْ أَرَ نَفْسِي لَهَا أَهْلًا فَكَذَبَ مُعَاوِيَةُ، نَحْنُ أَوْلَى بِالنَّاسِ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلَمْ نَزَلْ أَهْلَ الْبَيْتِ مَظْلُومِينَ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ، فَاللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ ظَلَمَنَا حَقَّنَا، وَتَوَثَّبَ عَلَى رِقَابِنَا، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا سَهْمَنَا مِنَ الْفَيْءِ، وَمَنَعَ أُمَّنَا مَا جَعَلَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَأُقْسِمُ بِاللهِ لَوْ أَنَّ النَّاسَ بَايَعُوا أَبِي حِينَ فَارَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَأَعْطَتْهُمُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا وَالْأَرْضُ بَرَكَتَهَا وَمَا طَمِعْتَ فِيهَا يَا مُعَاوِيَةُ. فَلَمَّا خَرَجَتْ مِنْ مَعْدِنِهَا تَنَازَعَتْهَا قُرَيْشٌ بَيْنَهَا فَطَمِعَتْ فِيهَا الطُّلَقَاءُ وَأَبْنَاءُ الطُّلَقَاءِ -أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ-. وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا وَلَّتْ أُمَّةٌ أَمْرَهَا رَجُلًا وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَذْهَبُ سَفَالًا حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى مَا تَرَكُوا، فَقَدْ تَرَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَارُونَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى فِيهِمْ وَاتَّبَعُوا السَّامِرِيَّ، وَقَدْ تَرَكَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَبِي وَبَايَعُوا غَيْرَهُ وَقَدْ سَمِعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا النُّبُوَّةَ. وَقَدْ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَصَبَ أَبِي يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْهُمُ الْغَائِبَ.

وَقَدْ هَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى حَتَّى دَخَلَ الْغَارَ، وَلَوْ وَجَدَ أَعْوَاناً مَا هَرَبَ. وَقَدْ كَفَّ أَبِي يَدَهُ حِينَ نَاشَدَهُمْ وَاسْتَغَاثَ فَلَمْ يُغَثْ. فَجَعَلَ اللهُ هَارُونَ فِي سَعَةٍ حِينَ اسْتَضْعَفُوهُ

وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ، وَجَعَلَ اللهُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فِي سَعَةٍ حِينَ دَخَلَ الْغَارَ وَلَمْ يَجِدْ أَعْوَاناً. وَكَذَلِكَ أَبِي وَأَنَا فِي سَعَةٍ مِنَ اللهِ حِينَ خَذَلَتْنَا هَذِهِ الْأُمَّةُ وَبَايَعُوكَ يَا مُعَاوِيَةُ، وَإِنَّمَا هِيَ السُّنَنُ وَالْأَمْثَالُ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَوِ الْتَمَسْتُمْ فِيمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَنْ تَجِدُوا رَجُلًا وَلَدَهُ نَبِيٌّ غَيْرِي وَأَخِي لَمْ تَجِدُوا، وَإِنِّي قَدْ بَايَعْتُ هَذَا وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»[1].

بــاء: ومرة أخرى صعد معاوية المنبر ونال من أمير المؤمنين فتحدّاه الإمام الحسن عليه السلام بما فضحه أمام الملأ. تقول الرواية:

«بعد أن تمت المصالحة سَارَ حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّاماً فَلَمَّا اسْتَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ لَهُ مِنْ أَهْلِهَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَ النَّاسَ، وَذَكَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَنَالَ مِنْهُ وَنَالَ مِنَ الْحَسَنِ عليه السلام مَا نَالَ، وَكَانَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهما السلام حَاضِرَيْنِ، فَقَامَ الْحُسَيْنُ عليه السلام لِيَرُدَّ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ الْحَسَنُ عليه السلام فَأَجْلَسَهُ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: **«أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيًّا! أَنَا الْحَسَنُ وَأَبِي عَلِيٌّ، وَأَنْتَ مُعَاوِيَةُ وَأَبُوكَ صَخْرٌ، وَأُمِّي فَاطِمَةُ وَأُمُّكَ هِنْدٌ، وَجَدِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَجَدُّكَ حَرْبٌ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ وَجَدَّتُكَ قَتِيلَةُ. فَلَعَنَ اللهُ أَخْمَلَنَا ذِكْراً، وَأَلْأَمَنَا حَسَباً، وَشَرَّنَا قَدَماً، وَأَقْدَمَنَا كُفْراً وَنِفَاقاً»**. فَقَالَتْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْمَسْجِدِ آمِينَ آمِين»[2].

جيم: وفي الشام حيث رَكَّز معاوية سلطته خلال عشرات السنين، ولفَّق أكاذيب على الإسلام حتى كاد يخلق للناس ديناً جديداً؛ وقف الإمام الحسن المجتبى عليه السلام يعارض نظامه الفاسد، ويُبيِّن أنه وخطه الأولى بالقيادة. يقصّ علينا التاريخ الحادثة التالية:

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٦٢ - ٦٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٤٩.

«رُوِيَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَجُلٌ عَيِيٌّ، وَإِنَّهُ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَرَمَقُوهُ بِأَبْصَارِهِمْ خَجِلَ وَانْقَطَعَ، لَوْ أَذِنْتَ لَهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ لَوْ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ وَوَعَظْتَنَا! فَقَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَابْنُ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَا ابْنُ رَسُولِ اللهِ، أَنَا ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، أَنَا ابْنُ السِّرَاجِ الْمُنِيرِ، أَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ، أَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، أَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، أَنَا ابْنُ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ، أَنَا ابْنُ صَاحِبِ الْفَضَائِلِ، أَنَا ابْنُ صَاحِبِ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَائِلِ، أَنَا ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا الْمَدْفُوعُ عَنْ حَقِّي، أَنَا وَاحِدُ سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنَا ابْنُ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، أَنَا ابْنُ مَكَّةَ وَمِنًى، أَنَا ابْنُ الْمَشْعَرِ وَعَرَفَاتٍ».

فَاغْتَاظَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: خُذْ فِي نَعْتِ الرُّطَبِ وَدَعْ ذَا فَقَالَ: **«الرِّيحُ تَنْفُخُهُ وَالْحَرُّ يُنْضِجُهُ وَبَرْدُ اللَّيْلِ يُطَيِّبُهُ»**، ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: **«أَنَا ابْنُ الشَّفِيعِ الْمُطَاعِ، أَنَا ابْنُ مَنْ قَاتَلَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ، أَنَا ابْنُ مَنْ خَضَعَتْ لَهُ قُرَيْشٌ، أَنَا ابْنُ إِمَامِ الْخَلْقِ وَابْنُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**.

فَخَشِيَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَفْتَتِنَ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! انْزِلْ فَقَدْ كَفَى مَا جَرَى، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: ظَنَنْتُ أَنْ سَتَكُونُ خَلِيفَةً وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ، فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام: **«إِنَّمَا الْخَلِيفَةُ مَنْ سَارَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، لَيْسَ الْخَلِيفَةُ مَنْ سَارَ بِالْجَوْرِ وَعَطَّلَ السُّنَّةَ وَاتَّخَذَ الدُّنْيَا أَباً وَأُمّاً مَلِكَ مُلْكاً مُتِّعَ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ تَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ»**.

وَحَضَرَ الْمَحْفِلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَانَ شَابًّا، فَأَغْلَظَ لِلْحَسَنِ كَلَامَهُ وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي السَّبِّ وَالشَّتْمِ لَهُ وَلِأَبِيهِ، فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام: **«اللَّهُمَّ غَيِّرْ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاجْعَلْهُ أُنْثَى لِيُعْتَبَرَ بِهِ»**، فَنَظَرَ الْأُمَوِيُّ فِي

نَفْسِهِ وَقَدْ صَارَ امْرَأَةً قَدْ بَدَّلَ اللهُ لَهُ فَرْجَهُ بِفَرْجِ النِّسَاءِ وَسَقَطَتْ لِحْيَتُهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام: «**اعْزُبِي مَا لَكِ وَمَحْفَلَ الرِّجَالِ فَإِنَّكِ امْرَأَةٌ**».

ثُمَّ إِنَّ الْحَسَنَ عليه السلام سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ نَفَضَ ثَوْبَهُ وَنَهَضَ لِيَخْرُجَ فَقَالَ ابْنُ الْعَاصِ: اجْلِسْ فَإِنِّي أَسْأَلُكَ مَسَائِلَ. قَالَ عليه السلام: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»، قَالَ عَمْرٌو: أَخْبِرْنِي عَنِ الْكَرَمِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ، فَقَالَ عليه السلام: «**أَمَّا الْكَرَمُ فَالتَّبَرُّعُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِعْطَاءُ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَأَمَّا النَّجْدَةُ فَالذَّبُّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالصَّبْرُ فِي الْمَوَاطِنِ عِنْدَ الْمَكَارِهِ، وَأَمَّا الْمُرُوءَةُ فَحِفْظُ الرَّجُلِ دِينَهُ وَإِحْرَازُهُ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ وَقِيَامُهُ بِأَدَاءِ الْحُقُوقِ وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ**».

فَخَرَجَ (الإمام الحسن عليه السلام) فَعَذَلَ مُعَاوِيَةُ عَمْراً فَقَالَ: أَفْسَدْتَ أَهْلَ الشَّامِ، فَقَالَ عَمْرٌو: إِلَيْكَ عَنِّي إِنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يُحِبُّوكَ مَحَبَّةَ إِيمَانٍ وَدِينٍ، إِنَّمَا أَحَبُّوكَ لِلدُّنْيَا يَنَالُونَهَا مِنْكَ وَالسَّيْفُ وَالْمَالُ بِيَدِكَ، فَمَا يُغْنِي عَنِ الْحَسَنِ كَلَامُهُ.

ثُمَّ شَاعَ أَمْرُ الشَّابِّ الْأُمَوِيِّ، وَأَتَتْ زَوْجَتُهُ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام فَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَتَضَرَّعُ فَرَقاً لَهُ [فَرَقَّ لَهَا]، وَدَعَا فَجَعَلَهُ اللهُ كَمَا كَانَ»(١).

إلى المدينة:

وهكذا ظل الإمام في الكوفة شهوراً، ثم ارتحل عنها وارتحل معه كلّ الخير. ففي الأيام نفسها التي خرج الإمام عنها، حلّ بها طاعون فمات الكثير من أهلها، حتى أن واليها (المغيرة بن شعبة) أُصيب به فمات.

فلما بلغ المدينة، خفَّ أهلها يستقبلونه أحرّ الاستقبال. وظل

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٨٨ - ٩٠.

هناك يقود حرباً باردة ضد معاوية ومؤامراته على المسلمين، حتى كانت السنة حيث وفد إلى الشام عاصمة الخلافة الإسلامية، فراح يبلّغ عن دعوته التي خُلق لها وخرج بها، وعاش معها، تلك دعوة الحق، ومحق الباطل. ولقد أظهر الإمام في تلك الرحلة الرسالية، لأهل الشام، أن معاوية ليس بالذي يصلح للقيادة، على ما موّه عليهم بدعاياته المضللة، فهو يرجع بهم إلى الجاهلية حيث كان أبوه يستعبد الناس ويستنزف جهودَهم وطاقاتهم، ولا يهمه بعد ذلك أَسَعِدُوا أم شقوا.

وليس من العجب أن نرى كلّ من التفَّ حول معاوية ودافع عن أفكاره ونصب نفسه لدعوته، كان من قبل قد التفَّ هو أو أسرته حول أبي سفيان ودافع عن أفكاره. فلا زال معاوية يقود الحزب الأموي الذي قاده من قبل والده أبو سفيان، بالمفاهيم والعادات والسلوكات ذاتها. كما أنه لا يثير العجب إذا رأينا في صف الإمام الحسن عليه السلام ثلة صالحة ممن كان قبل أيام يناضل أبا سفيان وحزبه دفاعاً عن قيم الرسالة.

والواقع أن حركة معاوية كانت ردّ فعل جاهلي ضد انتشار رسالة الإسلام وكانت على صلة تامة بالروم.

وكان معاوية يعتمد على أشخاص مثل عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، وعتبة بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ونظائرهم ممن لا تزال صورهم أو صور أسرهم تتراءى لنا، في ميادين بدر والخندق، كما كان يعتمد على النصارى الذين أصبحت لهم قوة لا يُستهان بها داخل الدولة الأموية. وإن معاوية كان يجتمع كلّ مساء بمن يقرأ عليه أخبار الحروب السابقة وخصوصاً تجارب الروم في الحروب السياسية فيستفيد منها.

من هنا نعرف أن الحرب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أو نجله الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية، لم تكن صراعاً مجرداً

على السلطة ولا صراعاً بين حزبين داخل الإطار الإسلامي، بل كان صراعاً بين الكفر المُبطَّن والإسلام الحق. ولذلك اتَّبع الإمام الحسن عليه السلام نهجاً خاصًّا في مواجهة الصراع، وهو نهج الدعوة الصريحة، حيث سافر إلى الشام، عاصمة الخلافة، كي يُقر حقًّا نذر له نفسه، ومن الطبيعي أن أهل الشام سوف يلتفتون إليه بعد أن كان رئيس الحركة المناوئة لدولتهم، وقائد الحرب المعارض لسياستهم. ولابد أن يفد عليه منهم خلق كثير، فهنالك يستطيع أن يبلِّغ دعوته وينشر من علومه ما يدكّ صرح معاوية السياسي وينسف أحلامه الجاهلية.

وإن صفحات التاريخ تطالعنا بكثير من خطبه التي ألقاها على أهل الشام، فأثَّر في نفوسهم أبلغ تأثير، ولم يزل كذلك حتى اشتكاه أنصار معاوية قائلين له: إن الحسن قد أحيا أباه وَذِكْره، وقال فصُدِّق، وأمر فأُطيع، وخفقت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا.

سياسته في عهد معاوية:

وهكذا قاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام معارضة سياسية قوية، ولكن من دون الحرب. وكان يُوجِّه شيعته هنا وهناك، ويُنظِّم صفوفَهم، ويُنَمِّي كفاءاتهم، ويدافع عنهم أمام بطش معاوية وكيده. وفي الوقت ذاته كان عليه السلام يقوم بنشر الثقافة الإسلامية في كافة البلاد، إما عن طريق الرسائل والمُوفَدِيْنَ من تلامذته البارعين الذين كان يَتكَفَّل أمورهم المادية والمعنوية ثم يبعثهم إلى الآفاق، أو عبر الخطب التي كان يلقيها في مواسم الحج وغيرها، فيملك ناحية الأمة ويستأثر بقيادتها الثقافية. ومن ذلك أيضاً، نستطيع أن نُدرك سرَّ اختياره المدينة المنورة وطناً دائماً له، حيث كان فيها من الأنصار وغيرهم ممن يقدر على

إرشادهم وتوجيههم، وبذلك يستطع أن يشقّ طريقه إلى إرشاد الأمة وتوجيهها، حيث كان الأنصار وأولادهم هم القدوة الفكرية للأمة، فَمَنْ ملك قيادة الأنصار ملك قيادة الأمة فعلاً.

الشهادة: العاقبة الحسنى:

لقد دعت سياسة الإمام الرشيدة ومكانته المتنامية في الأمة معاوية إلى أن يشك في قدرته على مناوأته، واستئثاره -من ثم- بقيادة الأمة، حيث إنه ما خطا خطوة تُخالف قِيَمَ الحق أو مصالح الأمة، إلّا وعارضه الإمام واتَّبعته الأمة في ذلك، ففشلت مساعي معاوية وخابت آماله، فدبَّر حيلة كانت ناجحة إلى أبعد الحدود، تلك هي الفتك بحياة الإمام عليه السلام عن طريق سمٍّ بعثه إلى زوجته. وقد سبق القول في أن منطق معاوية كان يبرّر له كلّ جريمة، وكان له جنود من عسل على حدّ تعبيره، فإذا كره من فرد شيئاً بعث إليه عسلاً ممزوجاً بالسمّ فيقتله بذلك.

وقد فعل مثل ذلك بالإمام الحسن عليه السلام مرات عديدة، فلم يُؤثر فيه، وباءت مساعيه بالفشل. إلا أنه ذات مرة بعث إلى عاهل الروم يطلب منه سمًّا فتّاكاً، فقال ملك الروم: إِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا أَنْ نُعِينَ عَلَى قِتَالِ مَنْ لَا يُقَاتِلُنَا، فراسله معاوية يقول: إِنَّ هَذَا ابْنُ الرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ بِأَرْضِ تِهَامَةَ -يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- خَرَجَ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَدُسَّ إِلَيْهِ مَنْ يَسْقِيهِ ذَلِكَ فَأُرِيحَ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْه.

فبعث ملك الروم إلى معاوية بالسمّ الفتاك الذي دسه إلى الإمام عليه السلام عن طريق جعدة الزوجة الخائنة التي كانت تنتمي إلى أسرة فاجرة، حيث اشترك أبوها في قتل أمير المؤمنين وأخوها في قتل الإمام

الحسين عليه السلام فيما بعد.

وفي ذلـك النهـار حيث كان قد مضى أربعون يوماً أو سـتون على سـقيه السـمّ، وقد أتمَّ وصاياه التـي أوصى بها إلى أخيه الإمام الحسـين عليه السلام، وعَلِمَ باقتراب أجله، فكان يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: «**اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَحْتَسِبُ عِنْدَكَ نَفْسِيْ، فَإِنَّهَا أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيَّ لَمْ أُصَبْ بِمِثْلِهَا. اللَّهُمَّ آنِسْ صَرْعَتِيْ، وَآنِسْ فِيْ القَبْرِ وَحْدَتِيْ، وَلَقَدْ حَاقَتْ شَرْبَتُهُ** (أيْ معاوية). **واللهِ مَا وَفَى بِمَا وَعَدَ، وَلَا صَدَقَ فِيْمَا قَالَ**».

وكان يتلـو آيـاتٍ من الذِّكْـرِ الحكيم حين التحـق بالرفيق الأعلى سلام الله عليه.

التشييع:

وقامـت المدينـة المنورة لتُشَـيِّعَ جثمان ابن بنت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الـذي لم يزل سـاهراً على مصالحهم قائماً بها أبداً. وجاء موكب التشـييع يحمل جثمانه الطاهر إلى الحرم النبويِّ ليدفنوه عند الرسول، أو ليجددوا العهـد معـه على ما كان قد وصَّى به الإمام، فركبت عائشـة بغلة شـهباء واسـتنفرت بني أمية وجاؤوا إلى الموكب الحافـل بالمهاجرين والأنصار وبني هاشـم وسـائر الجماهـير المؤمنة الثاويـة في المدينة، فقالت عائشـة تصيـح: يـا رُبَّ هيجاء هي خير من دعـة!. أَيُدْفَنُ عثـمان بأقصى المدينة ويدفن الحسن عند جدِّه.

ثـم صرخت في الهاشـميين، نحّوا ابنكـم واذهبوا بـه فإنكم قوم خَصِمُوْن.

ولـولا وصيـة من الحسـن عليه السلام بالغـة على الحسـين عليه السلام، ألَّا يُراق في تشـييعه مـلء محجمةِ دمٍ، لَمَا ترك بنو هاشـم لبني أمية في ذلك

اليوم كياناً. ولولا أن الحسين نادى فيهم: «**اللهَ اللهَ لَا تُضَيِّعُوا وَصِيَّةَ أَخِي وَاعْدِلُوا بِهِ إِلَى الْبَقِيعِ؛ فَإِنَّهُ أَقْسَمَ عَلَيَّ إِنْ أَنَا مُنِعْتُ مِنْ دَفْنِهِ مَعَ جَدِّهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **أَلَّا أُخَاصِمَ فِيهِ أَحَداً، وَأَنْ أَدْفِنَهُ بِالْبَقِيعِ مَعَ أُمِّهِ**»[1]. هذا، وقبل أن يعدلوا بالجثمان، كانت سهام بني أمية قد تواترت على جثمان السبط وأخذت سبعين سهماً مأخذها منه.

فراحوا إلى البقيع وقد اكتظ بالناس فدفنوه حيث الآن يُزار مرقده الشريف.

وهكذا عاش السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نقيًّا طاهراً مقهوراً مهتضماً، ومضى شهيداً مظلوماً محتسباً، فسلام الله عليه ما بقي الليل والنهار.

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص١٤٠.

الفصل الرابع

مَكارِمُ الأَخلاَقِ

ألف: العابد الزاهد:

١- حجَّ الإمام الحسن عليه السلام خمساً وعشرين مرةً ماشياً، والنجائب تُقاد من بين يديه. وكلما مرَّت به طائفة صُعقت وخفَّت بالنزول إجلالاً لسموِّه وكبير مكانته. فلم يزل حتى يعدل بطريقه عن الشارع العام، ليبلغ في تذلُّله للخالق كلّ مبلغ.

ولا تمر عليه حال من الأحوال إلَّا ذكر الله عزّ وجلّ رغَباً ورهَباً[1].

٢- وكان إذا ذكر الله عزَّ وجلَّ بكى، وإذا سُمِّي لديه القبر بكى، وإذا قيل في البعث شيء بكى، وإذا ذُكِّر بالصراط في المعاد بكى. وأما إذا ذُكر لديه العَرض الأكبر إذ الخلائق بين يدَي الله القدير، كلٌّ ينظر في شأنه، ولهم شؤون تُغنيهم عن الآخرين، فهناك شهق شهقة وغُشي عليه خوفاً وذعراً.

أما إذا حدَّث بالجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله الجنة واستعاذ به من النار[2].

وإذا توضأ فإنه كان يصفرُّ لونُه وترتعدُ فرائصُه، فإذا قام إلى

(١) راجع الأمالي للصدوق، ص١٧٨، وبحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣١، باب (١٦) مكارم أخلاقه وعمله وعلمه عليه السلام، وأعيان الشيعة، ج٤، ص٩٤.
(٢) أنظر: بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣١.

الصلاة اشتد اصفرار لونه وارتعاد فرائصه[1].

٣- وأما أمواله فقد قاسَمَ الله فيها ثلاثَ مرات، نصفاً بَذَلَ ونصفاً أبقى. وقد خرج من ماله كله مرتين في سبيل الله، فلم يبقَ له شيء إلَّا أعطاه في سبيل الله[2].

٤- أما ما قال فيه معاصروه، فقد قالوا: وكان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم بالدنيا[3].

ولقد أفرد بعض الكتّاب الأولين، موضوع زهد الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ في مجلد خاص، مثل محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المتوفي سنة ٣٨١ في كتابه (زهد الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ).

باء: المهيب الحبيب:

١- قال واصفوه: ما رآه أحد إلَّا هابه، وما خالطه إنسان إلَّا أحبّه، ولا سمعه عدوٌّ له أو صديقٌ خاطباً فاجترأ عليه بالتكلم واللغو.

وقالوا في شمائله أيضاً: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِي عَلَيْهِ السَّلَامُ، خلقاً وخُلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً[4].

وقالوا كذلك: «أَبْيَضَ مُشْرَباً حُمْرَةً، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ[5]، سَهْلَ الْخَدَّيْنِ[6]، دَقِيقَ الْمُسْرُبَةِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ[7]، ذَا وَفْرَةٍ كَانَ عُنُقُهُ إِبْرِيقَ فِضَّةٍ،

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣٩.
(٣) أنظر: الفصول المهمة، ج٢، ص٧٠٥- ٧٠٩، وتاريخ ابن عساكر، ج٤، ٢١٢.
(٤) أنظر: بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠٠.
(٥) أدعج العينين: أسود العينين مع سعتها.
(٦) سهل الخدَّين: قليل لحمه.
(٧) كثّ اللحية: كثيف اللحية.

عَظِيمَ الْكَرَادِيسِ[1] بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ رَبْعَةً لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلاَ الْقَصِيرِ مَلِيحاً مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً وَكَانَ يَخْضِبُ بِالسَّوَادِ وَكَانَ جَعْدَ الشَّعْرِ[2] حَسَنَ الْبَدَنِ..»[3].

٢- كان الإمام عليه السلام، محبوباً لدى الجميع، يُكرمه البعيد والقريب سواء، ومن مظاهر محبوبيته العامة، أنه كان يفرش له بباب داره في المدينة، يجلس يقضي حوائج الناس ويحلّ مشاكلهم، فكلّ من يمرّ به يقف هُنيأة يسمع حديثه، ويرى شمائله ويتزود بها من شمائل الرسول الأكرم وملامحه صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يزال حتى ينسد الطريق دون المارّة. فإذا عرف الإمام ذلك قام ودخل لكيلا يسبّب قطع الطريق.

وقال فيه محمد بن إسحاق: «مَا بَلَغَ أَحَدٌ مِنَ الشَّرَفِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَا بَلَغَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ»[4].

٣- وقال فيه الزبير: «والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي في هيبته وسمو منزلته»[5].

٤- وكان ابن عباس يأخذ بركاب الحسن والحسين على عادة من يريد أن يُبالغ في تواضعه إلى أحد، ويعرف الناس مدى خضوعه لسموِّه، فإنه كان يقود له الراحلة كالذي يُستأجر لذلك بالمال.

فكان ابن عباس يصنع ذلك للحسين، فرآه ذات مرة مدرك بن

(١) عظيم الكراديس: كراديس: كل عظم تكردس اللحم عليه.
(٢) جعد الشعر: تجعّد الشيء: تقبّض، وجعّد الشعر: صيره جعداً، وهو ضد سَبُط واسترسل.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠٣.
(٤) أنظر: إعلام الورى بأعلام الهدى، ص ٢١١.
(٥) أنظر: تاريخ أبن كثير، ج٨، ص٣٧.

زياد، فاندهش إذ رأى شيخ المفسرين يصنع هذا الإكرام بالحسنين، فقال: «أَنْتَ أَسَنُّ مِنْهُمَا تُمْسِكُ لَهُمَا بِالرِّكَاب.

فصاح ابن عباس في وجهه: يَا لُكَع!! وَمَا تَدْرِي مَنْ هَذَانِ؟.. هَذَانِ ابْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوَلَيْسَ مِمَّا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ بِهِ أَنْ أُمْسِكَ لَهُمَا وَأُسَوِّيَ عَلَيْهِمَا؟»[1].

جيم: الجواد الكريم:

١- أتاه رجل يطلب حاجة وهو يستحيي من الحاضرين أن يُفصح عنها، فقال له الإمام: «**اكْتُبْ حَاجَتَكَ فِيْ رُقْعَةٍ وَارْفَعْهَا إِلَيْنَا.**

فكتب الرجل حاجته ورفعها. فضاعفها له الإمام مرتين، وأعطاه في تواضع كبير.

فقال له بعض الشاهدين ما كان أعظم بركة الرقعة عليه، يا بن رسول الله!.

فقال: «**بَرَكَتُهَا إِلَيْنَا أَعْظَمُ حِيْنَ جَعَلَنَا لِلْمَعْرُوْفِ أَهْلًا، أَمَا عَلِمْتَ: أَنَّ المَعْرُوْفَ مَا كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ؟.**

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَيْتَهُ بَعْدَ مَسْأَلَةٍ فَإِنَّمَا أَعْطَيْتَهُ بِمَا بَذَلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ. وَعَسَى أَنْ يَكُوْنَ بَاتَ لَيْلَتَهُ مُتَمَلْمِلًا أَرِقاً، يَمِيْلُ بَيْنَ اليَأْسِ وَالرَّجَاءِ لِيَعْلَمَ بِمَا يَرْجِعُ مِنْ حَاجَتِهِ أَبِكَآبَةِ رُدَّ، أَمْ بِسُرُوْرِ النَّجحِ، فَيَأْتِيْكَ وَفَرَائِصُهُ تَرْعُدُ، وَقَلْبُهُ خَائِفٌ يَخْفِقُ، فَإِنْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَتَهُ فِيْمَا بَذَلَ مِنْ وَجْهِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا نَالَهُ مِنْ مَعْرُوْفِكَ».

٢- وجاءه رجل يسأل معروفاً، فَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣١٩.

وَخَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ وَقَالَ: «ائْتِ بِحَمَّالٍ يَحْمِلُ لَكَ. فَأَتَى بِحَمَّالٍ فَأَعْطَى طَيْلَسَانَهُ فَقَالَ: هَذَا كِرَى الحَمَّال»[1].

٣- وَجَاءَه أعرابي يريد أن يسأله حاجة، فَقَالَ الإمام لمن حوله: «أَعْطُوهُ مَا فِي الخِزَانَةِ. فَوُجِدَ فِيهَا عِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فَدَفَعَهَا إِلَى الأَعْرَابِيِّ قبل أن يسأل. فاندهش الأعرابي وقال: يَا مَوْلَايَ أَلَا تَرَكْتَنِي أَبُوحُ بِحَاجَتِي وَأَنْشُرُ مِدْحَتِي، فَأَنْشَأَ الإمام يقول:

نَحْنُ أُنَاسٌ نَوَالُنَا خَضِلٌ   يَرْتَعُ فِيهِ الرَّجَاءُ وَالأَمَلُ
تَجُودُ قَبْلَ السُّؤَالِ أَنْفُسُنَا   خَوْفاً عَلَى مَاءِ وَجْهِ مَنْ يَسَل[2]

٤- وحجّ ذات سنة هو وأخوه الإمام الحُسَيْنُ عليه السلام، وَعَبْدُاللهِ بْنُ جَعْفَر، فَفَاتَهُمْ أَثْقَالُهُمْ فَجَاعُوا وَعَطِشُوا فَمَرُّوا بِعَجُوزٍ فِي خِبَاءٍ لَهَا فَقَالُوا: هَلْ مِنْ شَرَابٍ؟. فَقَالَتْ: نَعَمْ.

فَأَنَاخُوا بِهَا وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا شُوَيْهَةٌ فِي كَسْرِ الْخَيْمَةِ. فَقَالَتِ: احْلَبُوهَا وَامْتَذِقُوا لَبَنَهَا.

فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَقَالُوا لَهَا: هَلْ مِنْ طَعَامٍ؟.

قَالَتْ: لَا، إِلَّا هَذِهِ الشَّاةُ فَلْيَذْبَحَنَّهَا أَحَدُكُمْ حَتَّى أُهَيِّئَ لَكُمْ شَيْئاً تَأْكُلُونَ.

فَقَامَ إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ فَذَبَحَهَا وَكَشَطَهَا ثُمَّ هَيَّأَتْ لَهُمْ طَعَاماً فَأَكَلُوا ثُمَّ أَقَامُوا حَتَّى أَبْرَدُوا فَلَمَّا ارْتَحَلُوا قَالُوا لَهَا: نَحْنُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ نُرِيدُ هَذَا الْوَجْهَ فَإِذَا رَجَعْنَا سَالِمِينَ فَأَلِمِّي بِنَا فَإِنَّا صَانِعُونَ إِلَيْكِ خَيْراً.

ثُمَّ ارْتَحَلُوا وَأَقْبَلَ زَوْجُهَا وَأَخْبَرَتْهُ عَنِ الْقَوْمِ وَالشَّاةِ فَغَضِبَ

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٤١.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٤١.

الرَّجُلُ وَقَالَ: وَيْحَكِ تَذْبَحِينَ شَاتِي لِأَقْوَامٍ لَا تَعْرِفِينَهُمْ ثُمَّ تَقُولِينَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ!.

ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ أَلْجَأَتْهُمُ الْحَاجَةُ إِلَى دُخُولِ الْمَدِينَةِ فَدَخَلَاهَا وَجَعَلَا يَنْقُلَانِ الْبَعِيرَ إِلَيْهَا وَيَبِيعَانِهِ وَيَعِيشَانِ مِنْهُ فَمَرَّتِ الْعَجُوزُ فِي بَعْضِ سِكَكِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا الْحَسَنُ عليه السلام عَلَى بَابِ دَارِهِ جَالِسٌ فَعَرَفَ الْعَجُوزَ وَهِيَ لَهُ مُنْكِرَةٌ فَبَعَثَ غُلَامَهُ فَرَدَّهَا، فَقَالَ لَهَا: يَا أَمَةَ اللهِ تَعْرِفِينِي؟.

قَالَتْ: لَا. قَالَ عليه السلام: **أَنَا ضَيْفُكِ يَوْمَ كَذَا.**

فَقَالَتِ الْعَجُوزُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَأَمَرَ الْحَسَنُ عليه السلام فَاشْتَرَى لَهَا مِنْ شَاءِ الصَّدَقَةِ أَلْفَ شَاةٍ. وَأَمَرَ لَهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَبَعَثَ بِهَا مَعَ غُلَامِهِ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ: **بِكَمْ وَصَلَكِ أَخِي الْحَسَنُ**؟.

فَقَالَتْ: بِأَلْفِ شَاةٍ وَأَلْفِ دِينَارٍ. فَأَمَرَ لَهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ ... فَرَجَعَتِ الْعَجُوزُ إِلَى زَوْجِهَا بِذَلِكَ»[(١)].

٥- وتنازع رجلان، هذا أموي يقول: قومي أسمح، وهذا هاشمي يقول: بل قومي أسمح.

فقال أحدهما: فاسألْ أنت عشرة من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومي، يريد أن يسأل كلٌّ عطاء عشرة من قومه، فينظروا أيّ القومين أسخى وأسمح يداً. ثم إذا عرفوا ذلك أرجع كلّ منهما الأموال إلى أهلها، كلّ ذلك شريطة ألّا يخبرا من يسألاه بالأمر.

فانطلق صاحب بني أمية فسأل عشرة من قومه فأعطاه كلّ واحد منهم ألف درهم. وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين فقال: هل بدأت بأحد قبلي؟

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٤٨.

قال: بدأت بالحسن، قال: ما كنت أستطيع أن أزيد على سيدي شيئاً، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم، فجاء صاحب بني أمية يحمل عشرة آلاف درهم من عشرة أنفس وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة ألف درهم من نَفْسَين، فغضب صاحب بني أمية، حيث رأى فشله في مبادراته القبلية.

فردّ الأول حسب الشرط ما كان قد أخذه من بني أمية فقبلوه فَرِحين، وجاء صاحب بني هاشم الحسن والحسين يردّ عليهما أموالهما فأبيا أن يقبلاهما قائلين: **مَا كُنا نُبَالِيْ أَخَذْتَهَا أَمْ أَلْقَيْتَها فِيْ الطَّرِيْقِ**»[1].

دال: المتواضع الحليم:

١- مَرَّ عَلَى فُقَرَاءَ وَقَدْ وَضَعُوا كُسَيْرَاتٍ عَلَى الْأَرْضِ وَهُمْ قُعُودٌ يَلْتَقِطُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا، فلما رأوا موكب الإمام قاموا إليه، ودعوه إلى طعامهم قائلين: هَلُمَّ يَا بْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ إِلَى الْغَدَاء، فَنَزَلَ وَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**»، وَجَعَلَ يَأْكُلُ مَعَهُمْ حَتَّى اكْتَفَوْا وَالزَّادُ عَلَى حَالِهِ بِبَرَكَتِهِ عليه السلام، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى ضِيَافَتِهِ وَأَطْعَمَهُمْ وَكَسَاهُمْ.

٢- وعصفت به ظروف عصيبة أن لو مرت على الجبال لتدكدكت، وازدحمت فوق كتفيه مسؤوليات عظيمة فاضطلع بها وتغلَّب على صعابها في حلم وأناة، مما دفع أشدّ الناس عداوة له -وهو مروان- إلى أن يقول: «كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَنْ يُوَازِنُ حِلْمُهُ الْجِبَالَ»[2]. وكانت صفة الحلم أبرز سماته عليه السلام، حيث كان يشبّه فيها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) صلح الحسن عليه السلام، للسيد شرف الدين، ص ٢٩-٣٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص١٤٥.

الفصل الخامس

مِنْ بَلَاغَةِ الإِمَامِ

١- لا جبر ولا تفويض:

«مَنْ لَا يُؤْمِن بِاللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَقَدْ كَفَرَ، مَنْ حَمَلَ ذَنْبَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ فَقَدْ فَجَرَ. إِنَّ اللهَ لَا يُطَاعُ اسْتِكْرَاهًا، وَلَا يُعْصَى بِغَلَبَةٍ، لِأَنَّهُ المَلِيْكُ لِمَا مَلَّكَهُمْ، وَالقَادِرُ عَلَىٰ مَا أَقْدَرَهُمْ. فَإِنْ عَمِلُوْا بِالطَّاعَةِ لَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا فَعَلُوْا، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوْا فَلَيْسَ هُوَ الَّذِيْ يُجْبِرُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ. فَلَوْ أَجْبَرَ اللهُ الخَلْقَ عَلَى الطَّاعَةِ لَأَسْقَطَ عَنْهُمُ الثَّوَابَ، وَلَوْ أَجْبَرَهُمْ عَلَىٰ المَعَاصِيْ لَأَسْقَطَ عَنْهُمُ العِقَابَ. وَلَوْ أَنَّهُ أَهْمَلَهُمْ لَكَانَ عَجْزاً فِيْ القُدْرَةِ. وَلَكِنْ لَهُ فِيْهِمُ المَشِيْئَةُ الَّتِيْ غَيَّبَهَا عَنْهُمْ، فَإِنْ عَمِلُوْا بِالطَّاعَاتِ كَانَتْ لَهُ المِنَّةُ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ عَمِلُوْا بِالمَعْصِيَةِ كَانَتْ لَهُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ»[1].

٢- الموت يطلبك:

«يَا جُنَادَةَ! اسْتَعِدَّ لِسَفَرِكَ وَحَصِّلْ زَادَكَ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَطْلُبُ الدُّنْيَا وَالمَوْتُ يَطْلُبُكَ وَلَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ. وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَكْسِبُ مِنَ المَالِ شَيْئاً فَوْقَ قُوتِكَ إِلَّا كُنْتَ فِيهِ خَازِناً لِغَيْرِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، وَفِي الشُّبُهَاتِ عِتَابٌ، فَأَنْزِلِ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ المَيْتَةِ خُذْ مِنْهَا

(١) أنظر: جمهرة رسائل العرب.

مَـا يَكْفِيكَ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَلاَلاً كُنْتَ قَدْ زَهِدْتَ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ حَرَاماً لَمْ يَكُـنْ فِيـهِ وِزْرٌ، فَأَخَـذْتَ كَمَا أَخَذْتَ مِـنَ الْمَيْتَـةِ، وَإِنْ كَانَ الْعِتَابُ فَإِنَّ الْعِتَابَ يَسِيرٌ. وَاعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً، وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَداً. وَإِذَا أَرَدْتَ عِزًّا بِلاَ عَشِيرَةٍ وَهَيْبَةً بِلاَ سُلْطَانٍ فَاخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟.

وَإِذَا نَازَعَتْـكَ إِلَى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةٌ فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا صَحِبْتَهُ زَانَكَ، وَإِذَا خَدَمْتَهُ صَانَكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ مِنْهُ مَعُونَةً أَعَانَكَ، وَإِنْ قُلْتَ صَدَّقَ قَوْلَكَ، وَإِنْ صُلْتَ شَدَّ صَوْلَكَ، وَإِنْ مَدَدْتَ يَدَكَ بِفَضْلٍ مَدَّهَا، وَإِنْ بَدَتْ عَنْكَ ثُلْمَةٌ سَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَـنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ سَـأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَـكَتَّ عَنْهُ ابْتَدَأَكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الْمُلِمَّاتِ بِهِ سَـاءَكَ، مَنْ لاَ تَأْتِيكَ مِنْهُ الْبَوَائِقُ، وَلاَ يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ مِنْهُ الطَّرَائِقُ، وَلاَ يَخْذُلُكَ عِنْدَ الْحَقَائِقِ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا مُنْقَسِماً آثَرَكَ»[١].

من حكمته البالغة:

١- «الْمِزَاحُ يَأْكُلُ الْهَيْبَةَ، وَقَدْ أَكْثَرَ مِنَ الْهَيْبَةِ الصَّامِت»[٢].

٢- «الْمَسْؤُولُ حُرٌّ حَتَّى يَعِدَ، وَمُسْتَرَقٌّ الْمَسْؤُولُ حَتَّى يُنْجِز»[٣].

٣- «الْيَقِينُ مَعَاذٌ لِلسَّلاَمَة»[٤].

٤- «رَأْسُ الْعَقْلِ مُعَاشَرَةُ النَّاسِ بِالْجَمِيل»[٥].

٥- «الْقَرِيـبُ مَنْ قَرَّبَتْـهُ الْمَوَدَّةُ وَإِنْ بَعُدَ نَسَـبُهُ، وَالْبَعِيدُ مَنْ بَعَّدَتْهُ

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص١٣٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٠٩.
(٥) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١١.

المَوَدَّةُ وَإِنْ قَرُبَ نَسَبُهُ. لَا شَيْءَ أَقْرَبُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ يَدٍ إِلَى جَسَدٍ، وَإِنَّ الْيَدَ تَغُلُّ فَتُقْطَعُ وَتُقْطَعُ فَتُحْسَم»[1].

٦- «الْفُرْصَةُ سَرِيعَةُ الْفَوْتِ بَطِيئَةُ الْعَوْدِ»[2].

٧-لَئِنْ سَاءَنِي دَهْرٌ عَزَمْتُ تَصَبُّراً ... وَكُـلُّ بَـلَاءٍ لَا يَـدُومُ يَسِيرُ
وَإِنْ سَرَّنِي لَمْ أَبْتَهِجْ بِسُرُورِه ... وَكُـلُّ سُرُورٍ لَا يَـدُومُ حَقِير[3]

***

٨- يَا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا ... إِنَّ الْمُقَامَ بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمْقُ[4]

***

٩-لَكِسْرَةٌ مِنْ خَسِيسِ الْخُبْزِ تُشْبِعُنِي ... وَشَرْبَـةٌ مِنْ قَـرَاحِ الْمَـاءِ تَكْفِينِي
وَطِمْرَةٌ مِنْ رَقِيقِ الثَّوْبِ تَسْتُرُنِي ... حَيًّا وَإِنْ مِتُّ تَكْفِينِي لِتَكْفِينِي[5]

***

١٠- إذا ما أتاني سائل قلت مرحباً ... بمَن فضلهُ فـرضٌ عـليّ معجلُ
ومن فضله فضلٌ على كلِّ فاضلِ ... وأفضلُ أيامِ الفتى حين يُسألُ[6]

***

تاريخ الانتهاء من التأليف: ٣/ ١٠/ ١٣٨٦هـ.

وأنا أشكر الله الكريم على ذلك.

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٠٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٥٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٤١.
(٥) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٤١.
(٦) شرح إحقاق الحق، ج١١، ص ١٥١.

المحتويات